منارات
manarat

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير
فخري كريم

ملحق ثقافي اسبوعي يصدر عن جريدة المدى

العدد (1813)السنة السابعة -السبت (5) حزيران 2010

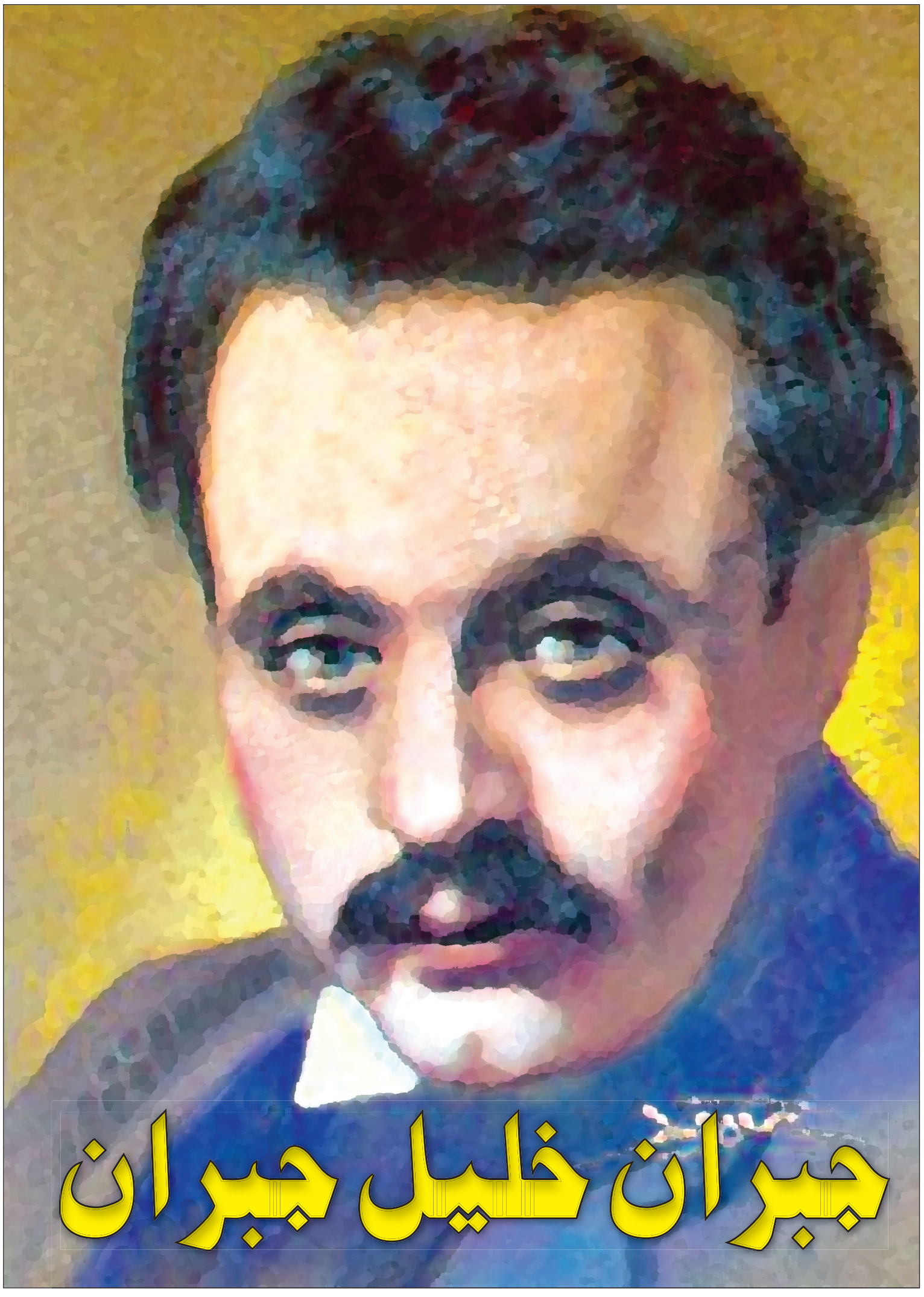

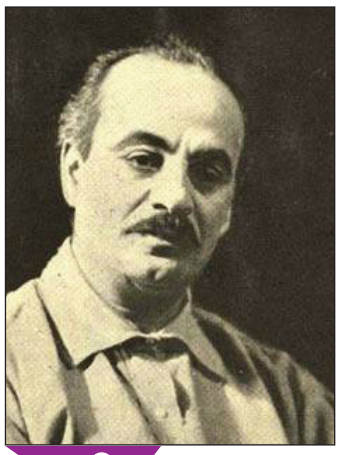

2

جبران خليل جبران
سيرة ابداع وغربة

6

موت النبي الزائف
لجبران خليل جبران

12

عن حب مي زيادة
لجبران خليل جبران

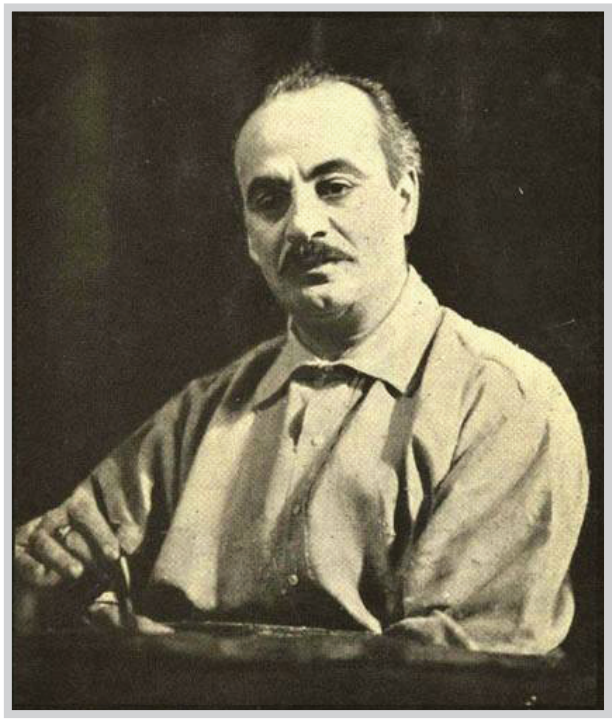

جبران خليل جبران

سـيـرة ابـداع وغـربـة

جبران خليل جبران بن ميخائيل بن سعد، من أحفاد يوسف جبران الماروني البشعلاني، شاعر لبناني، ولد في ٦ كانون الثاني ١٨٨٣ م في بلدة بشري شمال لبنان وتوفي في نيويورك ١٠ ابريل ١٩٣١ م بداء السل، سافر مع أمه وإخوته إلى أمريكا عام ١٨٩٥، فدرس فن التصوير وعاد إلى لبنان، وبعد أربع سنوات قصد باريس لمدة ثلاث سنوات، وهناك تعمق في فن التصوير. عاد إلى الولايات المتحدة الأمريكية مرة أخرى وتحديدا إلى نيويورك، وأسس مع رفاقه "الرابطة القلمية" وكان رئيسها. جمعت بعض مقالاته في كتاب "البدائع والطرائف". ولد هذا الفيلسوف والأديب والشاعر والرسام من أسرة صغيرة فقيرة في بلدة بشري في ٦ كانون الثاني ١٨٨٣. كان والده خليل جبران الزوج الثالث لوالدته كاملة رحمة التي كان لها ابن اسمه بطرس من زواج سابق ثم أنجبت جبران وشقيقتيه مريانا وسلطانة .

كان والده، خليل سعد جبران، يعمل راعياً للماشية ويمضي أوقاته في الشرب ولعب الورق. "كان صاحب مزاج متغطرس، ولم يكن شخصاً محباً"، كما يتذكر جبران، الذي عانى من إغاظته وعدم تفهمه. وكانت والدته "كاملة رحمة"، من عائلة محترمة وذات خلفية دينية، واستطاعت ان تعتني بها ماديا ومعنويا وعاطفيا.. وكانت قد تزوجت بخليل بعد وفاة زوجها الأول وإبطال زواجها الثاني. كانت شديدة السمرة، ورقيقة، وصاحبة صوت جميل ورثته عن أبيها.

لم يذهب جبران إلى المدرسة لأن والده لم يعط لهذا الأمر أهمية ولذلك كان يذهب من حين إلى آخر إلى كاهن البلدة الذي سرعان ما أدرك جديته وذكاءه فانفق الساعات في تعليمه الأبجدية والقراءة والكتابة مما فتح أمامه مجال المطالعة والتعرف إلى التاريخ والعلوم والآداب.

وبفضل أمه، تعلم الصغير جبران العربية، وتدرب على الرسم والموسيقى. ولما لاحظت ميل الرسم لديه،زودته بألبوم صور لـ "ليوناردو دافنشي"، الذي بقي معجباً به بصمت. بعد وقت طويل، كتب يقول: "لم أر قط عملاً لليوناردو دافنشي إلا وانتاب أعماقي شعور بأن جزءاً من روحه تتسلل إلى روحي...".

تركت أمه بصمات عميقة في شخصيته، ولم يفته أن يشيد بها في "الأجنحة المتكسرة": "إن أعذب ما تحدثه الشفاه البشرية هو لفظة "الأم"، وأجمل مناداة هي "يا أمي". كلمة صغيرة كبيرة مملوءة بالأمل والحب والانعطاف وكل ما في القلب البشري من الرقة والحلاوة والعذوبة. الأم هي كل شيء في هذه الحياة، هي التعزية في الحزن، والرجاء في اليأس، والقوة في الضعف، هي ينبوع الحنو والرأفة والشفقة والغفران، فالذي يفقد أمه يفقد صدراً يسند إليه رأسه ويداً تباركه وعيناً تحرسه...".

سنواته الأولى أمضاها جبران لا مبالياً، رغم الشجارات بين والديه والسقوط من فوق ذلك المنحدر الذي ترك فيه التواء في الكتف. تتلمذ في العربية والسريانية على يد الأب "جرمانوس". وعلمه الأب "سمعان" القراءة والكتابة في مدرسة بشري الابتدائية. ويروي صديقه الكاتب "ميخائيل نعيمة" أن الصغير جبران كان يستخدم قطعة فحم ليخط بها رسومه الأولى على الجدران. ويحكى أنه طمر يوما، وكان عمره أربع سنوات، ورقة في التراب وانتظر أن تنبت.

في العاشرة من عمره وقع جبران عن إحدى صخور وادي قاديشا وأصيب بكسر في كتفه اليسرى ، عانى منه طوال حياته.

لم يكف العائلة ما كانت تعانيه من فقر وعدم مبالاة من الوالد، حتى جاء الجنود العثمانيون عام (١٨٩١) والقوا القبض عليه أودعوه السجن بسبب لسوء إدارته الضرائب التي كان يجبيها. أدين، وجرد من كل ثرواته وباعوا منزلهم الوحيد، فاضطرت العائلة إلى النزول عند بعض الأقرباء ولكن الوالدة قررت ان الحل الوحيد لمشاكل العائلة هو الهجرة إلى الولايات المتحدة الإميركية سعيا وراء حياة أفضل !!

هجرة العائلة إلى أمريكا

أربك دخول خليل والدة جبران تماماً. كيف ستطعم أولادها الأربعة ولا تملك أي شيء. فكرت بالهجرة. ولكن، أين ستجد نفقات السفر.. باعت ما تبقى لها من تركة والدها. والتمست تدخل أحد الأساقفة للحصول على إذن السفر من السلطات الأمريكية. ورحلت الأسرة بحراً عام ١٨٩٥ إلى العالم الجديد، إلى بوسطن.**سعد العزاب**

عام ١٨٩٤ خرج خليل جبران من السجن، وكان محتارا في شأن الهجرة، ولكن الوالدة كانت قد حزمت أمرها، فسافرت العائلة تاركة الوالد وراءها.

حطت الأسرة الرحال في "إليس إيسلاند"، نيويورك، في ١٧ حزيران ١٨٩٥. ووصلوا إلى نيويورك بالتحديد في ٢٥ حزيران ١٨٩٥ ومنها انتقلوا إلى مدينة بوسطن حيث كانت تسكن أكبر جالية لبنانية في الولايات المتحدة. بعد ذلك بوقت قصير وهي المدينة التي ترتبط بها قضايا التاريخ الأمريكي الكبيرة: الثورة، والاستقلال، وإلغاء العبودية، وتحرير النساء... .

ونزلت العائلة في بوسطن في ضيافة أقارب كانوا قد جاءوا من بشري قبل سنوات قليلة وبذلك لم تشعر الوالدة بالغربة، بل كانت تتكلم اللغة العربية مع جيرانها، وتقاسمهم عاداتهم اللبنانية التي احتفظوا بها.

اهتمت الجمعيات الخيرية بإدخال جبران إلى المدرسة، في حين قضت التقاليد بأن تبقى شقيقتاه في المنزل، في حين بدأت الوالدة تعمل كبائعة متجولة في شوارع بوسطن على غرار الكثيرين من أبناء الجالية. وقد حصل خطأ في تسجيل اسم جبران في المدرسة وأعطي اسم والده، وبذلك عرف في الولايات المتحدة باسم "خليل جبران". وقد حاول جبران عدة مرات تصحيح هذا الخطأ فيما بعد إلا انه فشل.

بدأت أحوال العائلة تتحسن ماديا حيث راح الأخ البكر غير الشقيق بطرس يبحث عن عمل. ووجده في محل للمنسوجات. وكان على الأم كاملة أن تحمل على ظهرها بالة صغيرة من الشراشف والأغطية والحريريات السورية وتنتقل بها من بيت إلى بيت لبيعها. ثم عملت في الخياطة، بمساعدة ابنتيها سلطانة وماريانا، وعندما جمعت الأم مبلغا كافيا من المال أعطته لابنها بطرس الذي يكبر جبران بست سنوات وفتحت العائلة محلا تجاريا.

وكان معلمو جبران في ذلك الوقت يكتشفون مواهبه الأصيلة في الرسم ويعجبون بها إلى حد ان مدير المدرسة استدعى الرسام الشهير هولاند داي لإعطاء دروس خاصة لجبران مما فتح أمامه أبواب المعرفة الفنية وزيارة المعارض والاختلاط مع بيئة اجتماعية مختلفة تماما عما عرفه في السابق.

في نفس الوقت أشفقت كاملة على بطرس وهي تراه يكد لإعالة الأسرة، بينما كان يمضي جبران وقته في القراءة والرسم والاستغراق في الأحلام. وطلبت منه مساعدة أخيه لكنه رفض صراحة، معلناً إن إصبع رسام صغيرة لتساوي ألف تاجر. ما عدا بطرس، وإن صفحة من الشعر لتساوي كل أنسجة مخازن العالم. في الواقع، أخذ جبران يواظب على التردد إلى مؤسسة خيرية تعطي دروساً في الرسم اسمها "دنسيون هاوس" حيث لفتت موهبته انتباه مساعدة اجتماعية نافذة جداً اسمها "جسي"، التي عرّفته من خلال صديق لها إلى المصور الشهير "فرد هولاند داي، الذي كان يدير داراً للنشر في بوسطن.

كان داي بحاجة لموديلات شرقية لصوره. وقد راقه جبران بوجهه المسفوع، وشعره الأسود، ونظراته التأملية. ألبسه راعيه إياه ثياباً جديدة، وأولمه، وعرّفه إلى عالم الرسام والشاعر "وليم بليك"، الذي اكتشف فيه جبران عالماً أسطورياً وتنبؤياً، وبهره تنوع الينابيع التي أثرت مفرداته الشعرية، وتأثر بخصوبة أعماله الرمزية الموسومة بالجدل الروحي بين الخير والشر والجنة والجحيم... . لم يكن بعد، لصغر سنه، بمستوى الارتقاء إلى فكر "بليك" كله، غير أنه تمثل بعض أفكاره كنقد المجتمع والدولة، وفضيلة الرغبة الخلاقة، ووحدة الكائن، وراح يخط رسوماً مشحونة بالرموز مستوحاة من رسوم الفنان والشاعر اللندني الشهير...

كان لداي فضل اطلاع جبران على الميثولوجيا اليونانية، الأدب العالمي وفنون الكتابة المعاصرة والتصوير الفوتوغرافي، ولكنه شدد دائما على ان جبران يجب ان يختبر كل تلك الفنون لكي يخلص إلى نهج وأسلوب خاصين به. وقد ساعده على بيع بعض إنتاجه من إحدى دور النشر كغلافات للكتب التي كانت تطبعها. وقد بدا واضحا انه قد اختط لنفسه أسلوبا وتقنية خاصين به، وبدأ يحظى بالشهرة في أوساط بوسطن الأدبية والفنية.

العودة إلى لبنان

قررت عائلة جبران وخصوصا أمه أن الشهرة المبكرة ستعود عليه بالضرر، وانه لا بد أن يعود إلى لبنان لمتابعة دراسته

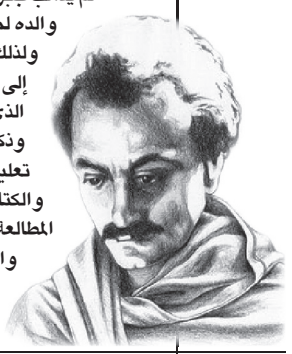

وكان معلمو جبران في ذلك الوقت يكتشفون مواهبه الأصيلة في الرسم ويعجبون بها إلى حد ان مدير المدرسة استدعى الرسام الشهير هولاند داي لإعطاء دروس خاصة لجبران مما فتح أمامه أبواب المعرفة الفنية وزيارة المعارض والاختلاط مع بيئة اجتماعية مختلفة تماما عما عرفه في السابق. في نفس الوقت أشفقت كاملة على بطرس وهي تراه يكد لإعالة الأسرة، بينما كان يمضي جبران وقته في القراءة والرسم والاستغراق في الأحلام.

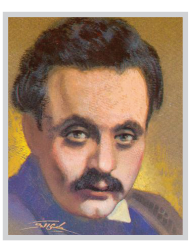

وخصوصا من أجل إتقان اللغة العربية .. وكان قد أثار تردد جبران المتزايد إلى أوساط "داي"، الذي لم تكن سمعته تدعو للارتياح، قلق الأسرة. وازدادت الأمور سوءاً بعد أن وقع في شراك زوجة تاجر في الثلاثين من عمرها، وغيابه المتكرر عن البيت ليلاً. وكان قد فتن قبلها بامرأة أخرى... وفكرت كاملة بإعادة ابنها المراهق إلى لبنان. فلم يعترض جبران فعاد إلى بيروت وهو يتكلم لغة إنكليزية ضعيفة، ويكاد ينسى العربية أيضا.

رحل إلى بيروت في ٣٠ آب ١٨٩٨.

كان بين أمتعته الأناجيل وكتاب لـ "توماس بلفنيتش" في الميثولوجيا اكتشف فيه الفنان الناشئ جبران دراما "بروميثيوس"، وأسطورة "أورفيوس"، والنبي الفارسي "زرادشت"، والفلسفة الفيثاغورسية، والأساطير الهندية... هرع جبران فوراً إلى بشري، وحضن أبيه، وتوافد الأقارب والأصدقاء لرؤية "الأمريكي". كان بينهم أستاذه الشاعر والطبيب "سليم الضاهر"، الذي نصحه بمتابعة دروسه في "كوليج دو لا ساجيس"، التي بقي فيها زهاء ثلاث سنوات. ورغم تأخره في [العربية الفصحى، "طلب" الفتى قبوله في صف أعلى وعدم سؤاله قبل ثلاثة أشهر.

وقبل القيمون "شروط" جبران، الذي أعجبتهم جرأته وقوة شخصيته. كان من بين أساتذته الأب "يوسف حداد"، الشاعر والكاتب المسرحي الذي اكتشف برفقته كنوز اللغة العربية، وابن خلدون، والمتنبي، وابن سينا، والشعراء الصوفيين. وبدأ يجيد التعبير عن أفكاره بلغته الأم، وكتب أولى نصوصه بالعربية. وتعلم الفرنسية وأخذ يقرأ آدابها. ويتذكر جبران أن تلك المدرسة كانت صارمة؛ وأنه لم يكن يمتثل لمعلميه؛ وأنه كان أقل تعرضاً للعقاب من بقية التلاميذ، لأنه كان يدرس كثيراً. كان في الصف يسرح في فكره دائماً، ويرسم، ويغطي كتبه ودفاتره برسوم كاريكاتورية لأساتذته. كان جبران في نظر رفاق الصف غريباً، بشعره الطويل الذي يرفض قصه، ومواقفه غير المألوفة.

في بداية العام ١٩٠٠، مع مطلع القرن الوليد، تعرف جبران على يوسف الحويك واصدرا معا مجلة "المنارة" وكانا يحررانها سوية فيما وضع جبران رسومها وحده. وبقيا يعملان معا بها حتى أنهى جبران دروسه بتفوق واضح في العربية والفرنسية والشعر (١٩٠٢) وكان في عام ١٩٠١ تم اختيار إحدى قصائده لنيل الجائزة التقديرية. وكان يتوق بحماس لنيل هذه الجائزة، لأن التلميذ الممتاز في هذه المدرسة هو الأكثر موهبة في الشعر، كما قال.

عودته إلى أمريكا .. والمآسي في انتظاره

وقد وصلته أخبار عن مرض أفراد عائلته، فيما كانت علاقته مع والده تنتقل من سيء إلى أسوأ فغادر لبنان عائدا إلى بوسطن، ولكنه لسوء حظه وصل بعد وفاة شقيقته سلطانة. وخلال بضعة أشهر كانت أمه تدخل المستشفى لإجراء عملية جراحية لاستئصال بعض الخلايا السرطانية. قرر شقيقه بطرس ترك المحل التجاري والسفر إلى كوبا. وهكذا كان على جبران ان يهتم بشؤون العائلة المادية والصحية. ولكن المآسي تتابعت بأسرع مما يمكن احتماله. فما لبث بطرس ان عاد من كوبا مصابا بمرض قاتل هو (السل) وقضى نحبه بعد أيام قليلة (١٢ آذار ١٩٠٣) فيما فشلت العملية الجراحية التي أجرتها الوالدة في استئصال المرض وقضت نحبها في ٢٨ حزيران من السنة نفسها.

إضافة إلى كل ذلك كان جبران يعيش أزمة من نوع آخر، فهو كان راغبا في إتقان الكتابة باللغة الإنكليزية، لأنها تفتح أمامه مجالا أرحب كثيرا من مجرد الكتابة في جريدة تصدر بالعربية في أميركا (كالمهاجر) ولا يقرأها سوى عدد قليل من الناس. ولكن انكليزيته كانت ضعيفة جدا. ولم يعرف ماذا يفعل، فكان يترك البيت ويهيم على وجهه هربا من صورة الموت والعذاب. وزاد من عذابه ان الفتاة الجميلة التي كانت تربطه بها صلة عاطفية، وكانا على وشك الزواج في ذلك الحين (جوزيفين بيبادي)، عجزت عن مساعدته عمليا، فقد كانت تكتفي بنقد كتاباته الإنكليزية ثم تتركه ليحاول إيجاد حل لوحده. في حين ان صديقه الآخر الرسام هولاند داي لم يكن قادرا على مساعدته في المجال الأدبي كما ساعده في المجال الفني.

مع فجر القرن العشرين، كانت بوسطن، التي سميت "أثينا الأمريكية"، مركزاً فكرياً حيوياً اجتذب فنانين مشهورين وواعدين. وكان بعضهم راغباً في الخروج من معاقل المادية للبحث عن سبل فنية جديدة واستكشاف ميثولوجيا وحضارات الشرق بل وعلومه الباطنية والروحية. وغاص جبران في هذا المجتمع البوسطني الذي تزدهر فيه حركات صوفية كان أبلغها تأثيراً "الحكمة الإلهية" التي أنشأتها عام ١٨٧٥ الأرستقراطية الروسية "هيلينا بتروفنا بلافاتسكي" التي اطلعت على تراث الهند، والتيبت وشجعت نهضة البوذية والهندوسية. وشيئاً فشيئاً، اتضح له أن الروحانية الشرقية التي تسكنه يمكن أن تجد تربة خصبة في هذه البيئة المتعطشة للصوفية... .

في ٦ كانون الثاني ١٩٠٤، عرض "داي" على جبران عرض لوحاته في الربيع القادم. لم يكن أمامه سوى أربعة أشهر. وبتأثيرات من عالم "وليم بليك"، أنجز رسوماً عديدة تفيض بالرمزية. اجتذبت أعماله كثيراً من الفضوليين، ولكن قليلاً من الشارين. وعبر عدد من النقاد عن إعجابهم بها.

قدمته جوزفين إلى امرأة من معارفها اسمها ماري هاسكل (١٩٠٤)، فخطت بذلك صفحات مرحلة جديدة من حياة جبران.

كانت ماري هاسكل امرأة مستقلة في حياتها الشخصية وتكبر جبران بعشر سنوات، وقد لعبت دورا هاما في حياته منذ ان التقيا. فقد لاحظت ان جبران لا يحاول الكتابة بالإنكليزية، بل يكتب بالعربية أولا ثم يترجم ذلك. فنصحته وشجعته كثيرا على الكتابة بالإنكليزية مباشرة. وهكذا راح جبران ينشر كتاباته العربية في الصحف أولا ثم يجمعها ويصدرها بشكل كتب ، ويتدرب في الوقت نفسه على الكتابة مباشرة بالإنكليزية.

عزم جبران على البحث عن عمل أكثر ربحاً من الرسم. ولما علم بأن شاباً لبنانياً يدعى "أمين غريّب" أصدر صحيفة بالعربية في نيويورك اسمها "المهاجر"، تقرب منه وأطلعه على رسومه وكتاباته وقصائده. قبل "غريب" مقابل دولارين في الأسبوع لجبران. وظهرت أول مقالة له في "المهاجر" بعنوان "رؤية". كان نصاً مفعماً بالغنائية أعطى الكلام فيه لـ "قلب الإنسان، أسير المادة وضحية قوانين الأنام".

وفي ١٢ تشرين الثاني ١٩٠٤، احترق مبنى معرض "داي"، وأتى على موجوداته كلها، بما في ذلك رسوم جبران. وتحت صدمة الحريق، الذي وصفه بأنه مشهد جديد من التراجيديا التي يعيشها منذ سنتين، أصبح جبران يكتب أكثر مما يرسم. وخصه "أمين غريب" بزاوية منتظمة بعنوان "أفكار"، ثم استبدله بعنوان "دمعة وابتسامة"، حيث راح جبران يتحدث عن المحبة، والجمال والشباب والحكمة. ونشرت له "المهاجر" عام ١٩٠٥ كتاباً بعنوان "الموسيقى".

بوسطن .. مرحلة جديدة

كانت باريس في بدايات القرن العشرين حلم فناني العالم كله. بعد وصوله إليها بوقت قصير، أقام في "مونبارناس"، وسرعان ما انتسب إلى "أكاديمية جوليان"، أكثر الأكاديميات الخاصة شعبية في باريس، التي تخرج منها فنانون كبار، "ماتيس"، و"بونار"، و"ليجيه"... وانتسب كطالب مستمع إلى "كلية الفنون الجميلة". أوقات فراغه، كان جبران يقضيها ماشياً على ضفاف نهر السين ومتسكعاً ليلاً في أحياء باريس القديمة. بعد أن ترك باريس لاحقاً، قال لصديقه "يوسف حويك" الذي عاش معه سنتين في مدينة النور: "كل مساء، تعود روحي إلى باريس وتتيه بين بيوتها. وكل صباح، أستيقظ وأنا أفكر بتلك الأيام التي أمضيناها بين معابد الفن وعالم الأحلام...".

لم يستطع جبران البقاء طولاً في "أكاديمية جوليان"، حيث وجد أن نصائح أستاذه فيها لم تقدم له أية فائدة. من المؤكد أن أسلوبه لم يستطع إرضاء روح جبران الرومانسية. في بداية شباط ١٩٠٩، عثر الفنان على أستاذ جديد: "بيير مارسيل بيرونو"، "الفنان الكبير والرسام الرائع والصوفي..."، حسب عبارة جبران. لكنه تركه أخيراً، بعد أن نصحه الفنان الفرنسي بالانتظار والتمهل حتّى ينهي كل قاموس الرسم، فجبران نهم إلى المعارف والإبداع وراغب في حرق المراحل... .

تردد حينذاك إلى أكاديمية "كولاروسي"، المتخصصة في الرسم على النموذج، والتي كانت تستقبل فنانين أجانب، غير أن جبران كان يفضل العمل وحيداً وبملء الحرية في مرسمه، وزيارة المعارض، والمتاحف، كمتحف اللوفر، الذي كان يمضي ساعات طويلة في قاعاته الفسيحة. وأعطى دروساً في الرسم لبعض الطلبة. وانخرط في مشروع طموح: رسم بورتريهات شخصيات شهيرة، وقد ابتدأها بالنحات الأمريكي "برتليت"، دون أن نعرف بدقة إن كان قد التقى بهؤلاء.

في هذه الأثناء، توفي والده. وكتب إلى "ميري هاسكل" يقول: "فقدت والدي.. مات في البيت القديم، حيث ولد قبل ٦٥ سنة.. كتب لي أصدقاؤه أنه باركني قبل أن يسلم الروح. لا أستطيع إلاّ أن أرى الظلال الحزينة للأيام الماضية عندما كان أبي، وأمي وبطرس وكذلك أختي سلطانة يعيشون ويبتسمون أمام وجه الشمس... ".

كان جبران دائم الشك، طموحاً، ومثالياً، متصورا أنه يستطيع إعادة تكوين العالم، وسعى إلى إقناع الآخرين بأفكاره ونظرياته حول الفن، والطبيعة،...، وقلقاً، وكثير التدخين، وقارئاً نهماً، وقد أعاد قراءة "جيد" و"ريلكه" و"تولوستوي" و"نيتشه"، وكتب نصوصاً بالعربية وصفها المحيطون به بأنها "حزينة ووعظية".

في ذلك الوقت، قدم إلى باريس عدد كبير من دعاة الاستقلال السوريين واللبنانيين، المطالبين بحق تقرير المصير للبلدان العربية الواقعة تحت النير العثماني. وظهرت فيها جمعيات سرية تطالب بمنح العرب في الإمبراطورية العثمانية حقوقهم السياسية وبالاعتراف بالعربية لغة رسمية... وتردد جبران إلى هذه الأوساط وتشرب بأفكارها. ورأى أن على العرب أن يثوروا على العثمانيين وأن يتحرروا بأنفسهم.

رغب جبران في التعريف بفنه. ونجح في الوصول إلى أشهر معارض باريس السنوية، معرض الربيع، حيث استطاع أن يعرض لوحة عنوانها "الخريف"، آملاً أن يمر بها "رودان العظيم" فيعجب بها ويثمنها. جاء الفنان الفرنسي، ووقف لحظة أمامها، وهز رأسه، وتابع زيارته. بعد ذلك، راح يهيئ اللوحات التي دعي لعرضها في معرض الاتحاد الدولي للفنون الجميلة في باريس الذي دعي إليه بشكل رسمي. إلاّ أن عدم الاستقرار أتعبه، فتخلى عن المشروع ليترك باريس ولم تتسن له بعد ذلك العودة قط إلى مدينة الجمال والفنون، ولا إلى مسقط رأسه لبنان. ولم تأته فرصة لرؤية إيطاليا التي طالما حلم بزيارتها.

غادر باريس ليعود إلى بوسطن

عام ١٩٠٨ غادر جبران إلى باريس لدراسة الفنون وهناك التقى مجددا بزميله في الدراسة في بيروت يوسف الحويك. ومكث في باريس ما يقارب السنتين ثم عاد إلى أميركا بعد زيارة قصيرة للندن برفقة الكاتب أمين الريحاني.

وصل جبران إلى بوسطن في كانون الأول عام ١٩١٠، حيث اقترح على ماري هاسكل الزواج والانتقال إلى نيويورك هربا من محيط الجالية اللبنانية هناك والتماسا لمجال فكري وأدبي وفني أرحب. ولكن ماري رفضت الزواج منه بسبب فارق السن، وان كانت قد وعدت بالحفاظ على الصداقة بينهما ورعاية شقيقته مريانا العزباء وغير المثقفة.

وهكذا انتقل جبران إلى نيويورك ولم يغادرها حتى وفاته. وهناك عرف نوعا من الاستقرار مكنه من الانصراف إلى أعماله الأدبية والفنية فقام برسم العديد من اللوحات لكبار المشاهير مثل رودان وساره برنار وغوستاف يانغ وسواهم.

ماري العزيزة

حال وصوله إلى بوسطن في بداية تشرين الثاني، هرع لرؤية أخته "مارينا". ثم مضى للقاء "ميري"، التي أعلمته على الفور. حرصاً منها على إبقاء الفنان تحت رعايتها. بأنها مستعدة للاستمرار في منحه الخمسة وسبعين دولاراً التي كانت تقدمها له إبان إقامته الباريسية. ونصحته باستئجار بيت أوسع لممارسة فنه بحرية. وساعدته في تحسين لغته الإنكليزية.

وتعززت صداقتهما. وفي ١٠ كانون الأول، زارها في بيتها لمناسبة عيد ميلادها السابع والثلاثين، وعرض عليها الزواج. لكنها رفضت بحجة أنها تكبره بعشر سنوات. وكتب لها فيما بعد أنها جرحته بهذا الرفض. وقررت "ميري" أن تتراجع وتقبل. ثم عادت فرفضت مرة أخرى.. ربما بسبب علاقاته مع نساء أخريات، أو لخوفها من الزواج بأجنبي. وسعى جبران بعد ذلك لإغراق خيبة أمله في العمل.

وسرعان ما شعر بأن بوسطن مدينة باردة وضيقة وأنها أصغر من طموحاته الفنية، خصوصاً بعد تلك الإقامة في باريس الرحبة والدافئة، عدا الجرح الذي تركته فيه "ميري". وقرر المغادرة إلى نيويورك. حزم حقائبه غير آسف، حاملاً معه مخطوطة "الأجنحة المتكسرة" ونسخة من "هكذا تكلم زرادشت" لنيتشه.

نيويورك

قال الشاعر والكاتب الفرنسي "بول كلودل" بعد وصوله إلى نيويورك عام ١٨٣٨: "بالنسبة للغريب الذي يقع هنا، جاهلاً كل شيء ودواعي كل شيء، تكون أيامه الأولى مذهلة..". إلاّ أن جبران فهمها فوراً: "نيويورك ليست مكاناً يمكن أن يجد فيه المرء راحة". بدأ إقامته بزيارة متحف "متروبوليتان ميوزم أف آرت"، الذي خرج منه مندهشاً. تعرف إلى الجالية اللبنانية، وبعض مشاهير نيويورك. في هذه الأثناء، جاءت "ميري" إلى نيويورك ووجدته يرسم لوحة "إيزيس". زارا بعض المتاحف والأوابد. وبعد ذلك، عادا معاً إلى بوسطن، حيث تهيأت الصديقة لقضاء عطلة في غرب البلاد. وعرضت حينذاك على جبران مبلغ خمسة آلاف دولار دفعة واحدة بدلاً من المبالغ الصغيرة المتقطعة. قبل بالعرض وألح بأن يوصي لها بكل ما يملك، عرفاناً بجميلها. وكتب وصية أدهشت أصدقاءه. أوصى بكل لوحاته ورسومه إلى "ميري" أو إن كانت متوفاة، إلى "فرد هولاند داي" وبمخطوطاته الأدبية إلى أخته وبكتبه في لبنان إلى مكتبة بشري.

استغل جبران الصيف لإنهاء "الأجنحة المتكسرة" وروتشة لوحة "إيزيس"، وبدأ برسم لوحات جديدة، وزين بالرسوم كتاباً لأمين الريحاني، وكتب مقالتين، إحداهما بعنوان "العبودية"، حيث يندد بالعبودية التي تقود شعباً وفقاً لقوانين شعب آخر، والأخرى بعنوان "أبناء أمي" يتمرد فيها على مواطنيه الذين لا يثورون في وجه المحتل. وحضر محاضرة للشاعر والكاتب المسرحي الإيرلندي "وليم ييتس" (جائزة نوبل ١٩٢٣)، وتعارفا والتقيا مراراً.

في ١٨ تشرين الأول عاد جبران إلى نيويورك وأقام في مبنى "تنث ستريت ستوديو" المخصص للفنانين. في هذه السنة نشر روايته "الأجنحة المتكسرة"، أكثر أعماله رومانسية، والتي أنبأت بأسلوبه وفكره المستقبليين.

في ١٥ نيسان ١٩١٢، هزت العالم حادثة غرق الـ "تيتانيك"، التي كان على متنها مئات الأشخاص، بينهم ٨٥ لبنانياً، غرق ٥٢ منهم. كانت الكارثة صدمة بالنسبة لجبران، الذي عز عليه النوم تلك الليلة. في اليوم نفسه، التقى بعبد البهاء، ابن بهاء الله مؤسس حركة البهائية الروحية في إيران، ودعاه لإلقاء خطاب أمام أعضاء "الحلقة الذهبية" حول وحدة الأديان.

في بداية الخريف، التقى جبران بالكاتب والروائي الفرنسي "بيير لوتي"، الذي جاء إلى نيويورك لحضور عرض مسرحية "بنت السماء" التي ألفها مع ابنة الأديب والشاعر الفرنسي "تيوفيل غوتيه". وقد عبر له "لوتي" عن قرفه من صخب أمريكا وقدم له نصيحة: "أنقذ روحك وعد إلى الشرق؛ مكانك ليس هنا!".

كيف يمكننا تصور جبران في هذه الفترة من حياته؟ كانت له ملامح أهل قريته: وجه ملوح بالسمرة، وأنف بارز، وشارب أسود وكثيف، وحاجبان مقوسن كثان، وشعر معقوص قليلاً، وشفتان ممتلئتان؛ وجبين عريض مهيب مثل قبة، وعينان يقظتان تنمان عن ذكاء هذا الشخص قصير القامة ذي الابتسامة المشرقة الموحية ببراءة الأطفال؛ "مكهرب، ومتحرك كاللهب" (ميري)؛ وطبيعة هي أقرب إلى الحزن؛ محب للانعزال ("الوحدة عاصفة صمت تقتلع كل أغصاننا الميتة")، ويجد لذة في العمل؛ أنوف، وبالغ الحساسية، ولا يتسامح مع أي نقد؛ مستقل وثائر بطبيعته، يأبى الظلم بأي شكل.

كان يدخن كثيراً: "اليوم. كتب إلى ميري .. دخنت أكثر من عشرين سيجارة. التدخين بالنسبة لي هو متعة وليس عادة مستبدة...".

وليلاً، كي يبقى متنبهاً ويستمر في عمله، كان يتناول القهوة القوية ويأخذ حماماً بارداً. إلا أن أسلوب الحياة إياه بدأ ينهك جسمه ويضفي عليه ملامح الكبر.

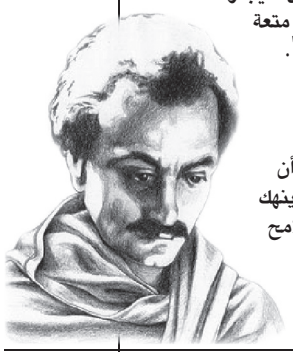

اعداد: منارات

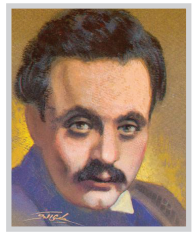

قررت عائلة جبران وخصوصا أمه أن الشهرة المبكرة ستعود عليه بالضرر، وانه لا بد أن يعود إلى لبنان لمتابعة دراسته وخصوصا من أجل إتقان اللغة العربية .. وكان قد أثار تردد جبران المتزايد إلى أوساط "داي"، الذي لم تكن سمعته تدعو للارتياح، قلق الأسرة. وازدادت الأمور سوءاً بعد أن وقع في شراك زوجة تاجر في الثلاثين من عمرها، وغيابه المتكرر عن البيت ليلاً. وكان قد فتن قبلها بامرأة أخرى... وفكرت كاملة بإعادة ابنها المراهق إلى لبنان. فلم يعترض جبران فعاد إلى بيروت وهو يتكلم لغة إنكليزية ضعيفة، ويكاد ينسى العربية أيضا.

الملاك الثائر

جـــــــبران خـــلـــيـــل جـــــبران

شاهدت – فيديو – في الايام الأخيرة. المسلسل السوري عن سيرة حياة الشاعر والفنان العالمي الأمريكي اللبناني الأصل "جبران خليل جبران"
حياته كانت سلسلة من العثرات و النكبات والمآسي .. كدت اتوقف عن المشاهدة، لما احسست به من شدة الاسي.
قرأت كل شعر واغلب ادب جبران، عندما كنت في اوائل العشرينيات من عمري .
لا اتذكر بالضبط ان كان الذي دفعني لقراءة جبران . هل هي رائعته التي تغنيها فيروز " اعطني الناي وغني " أم هي لقصيدة له كانت مقررة علينا في الدراسة بالمدرسة الثانوية !

صلاح الدين محسن

بريشة جبران خليل جبران

جبران صنعته أمه .. فقد كان ابوه تاجرا يكره الشعر والرسم كراهية . وكل همه هو تعليم طفله – ومنذ نعومة أظافره – التجارة والفهلوة والشطارة ..! ويسمي اللوحات العبقرية التي كان يرسمها طفله الموهوب : الخرابيش ..
وكانت الام " كاملة " تلتقط طفلها من بين يدي أبيه وهو يحاول تربيته على التجارة .. فتقدم لطفلها الموهوب. البومات تحمل رسومات الفنانين العالميين .وهو ما كان يفرح به "جبران " ، ويسعده جدا . كما شجعته على تعلم العزف الموسيقي ، فراح يرسم ويبدع ويعزف الموسيقى ويكتب الشعر ...

كانت السيدة " كاملة " أم جبران . مثقفة تتذوق الفن والموسيقى . لذا فقد اكتشفت موهبة طفلها مبكرا ... وكان يمثل أملا بالنسبة لها .. فراحت ترعاه وتحميه من أبيه التاجر الجاهل الجلف الشديد الجلافة .. ومن حسن حظها انها عاشت حتى شاهدت نجاح أملها ورأت ثمار زهرتها وشجرتها " جبران " ..

ومن المفارقات في حياة جبران . أن جده لأمه كان رجل دين " قس " ، والام كانت " كاملة " الاسم والفعل ..بينما ابوه سكيرا مقامرا .. وانسانا مستهترا..

لم ينس جبران . الدور الهام الذي لعبه في حياته وحياة الاسرة . شقيقه الاكبر " بطرس " الذي تولى الانفاق عليهم بالعمل في التجارة . عندما سجن الأب ظلما لمدة ٥ سنوات . وكان بطرس شابا غضا .. ، وكذلك " بطرس " هو الذي ادخر للاسرة تكاليف رحلة الهجرة لأمريكا . وكان من الصعب تدبير تلك التكاليف ، وهو أيضا الذي تعب كثيرا حتى أقنع الأم بفكرة الهجرة لأمريكا ، وكان هذا هو منفذ جبران للمجد والشهرة على ايدي الفنانين وعشاق الفن الامريكان .. ممن حبوا فنه الذي نال اعجابا وتقديرا كبيرين وكتبت الصحف عن لوحاته التي كانت في نظر ابيه – الجلف –. مجرد خرابيش تستثير غيظه وسخريته من ولده جبران ..

في رأينا : يكاد يكون جميع الممثلين بالمسلسل نجوما .. اجادوا جميعا

يبدو لنا أن المخرج قد أظهر من حياة " مي زيادة " ما هو أكثر من اللازم ، فقد اسهب فيما عرضه من حياة " مي " حتى نسيت أن المسلسل عن جبران ..وانما عن " مي زيادة " التي تستحق مسلسلا خاصا عن حياتها .

وربما ما اسهب المسلسل في تقديمه عن " مي زيادة " سوف يقلل من قيمة مسلسل آخر يقدم عن حياة " مي " مستقبلا ، بالاضافة الي ان ما قدمه المسلسل عنها . هو خارج واكبر من علاقتها بجبران . تلك العلاقة التي لم تتعد حدود مراسلات اعجاب تطورت لحد الحب عن بعد ..

وقد فعل المسلسل العكس مع " ماري هكسل " الأمريكية التي لعبت دورا عمليا وعاطفيا حقيقيا في حياة جبران . اذ كانت راعية لموهبته وقدمته ودفعته نحو الشهرة والنجاح ، وكانت صديقة وحبيبة ايضا ، ولكن دورها في المسلسل جاء هامشيا مقتضبا ..!

المطربة الصاعدة – سوبر ستار – التي تغنت في المسلسل برائعة جبران التي تشدو بها الفنانة " فيروز " – اعطني الناي وغني – أعجبني جدا صوتها وأداءها ، لأول مرة أستمع اليها اسمها " شهد برمادا " .انها أكثر من رائعة . أداؤها فيه رشاقة وأناقة واحساس أداء السيدة " ماجدة الرومي " ، صوت لامع وشفاف .. لقد أعطت للأغنية مذاقا اضافيا جميلا . بجانب المذاق الذي احببناه من الصوت الملائكي للفنانة الكبيرة " فيروز – المطربة الأساسية للقصيدة – . "

نعتقد في أن التمثيل والسينما السورية . بسبب اللهجة . لم تاخذ ما تستحقه عند الجمهور المصري . عدا الفنانة رغدة ، والفنان دريد لحام.

ولكنني هنا في مونتريال اتيحت لي الفرصة لمشاهدة عددا كبيرا من الافلام السورية أعجبتني جدا . وساعدني على فهمها ، معرفتي باللهجة السورية . منذ زرت سوريا ولبنان ، منذ سنوات كثيرة مضت .

ظروف سجن والد جبران . ظلما . ربما كانت وراء ما قاله في شعره :

العدل في الارض يبكي الجن
لو سمعوا به ××× ويستضحك
الاموات لو نظروا

لعل الكثيرين لا يعرفون أن اغنب فيروز " اعطني الناي وغني هي مجرد مقتطفات من قصيدة جبران الطويلة الملحمية " المواكب " ، و يعجبنا مما جاء فيها : هل تحممت بعطر ؟ وتنشفت بنور ؟!

وقوله عن الدين :

الدين في الناس حقل ليس يزرعه ، غير الأولى لهم في زرعه وطر
فمن آمل بنعيم الخلد مبتشر
..... ومن جهول يخشي النار تستعر
والناس لولا عقاب البعث ما عبدوا
ربا ولولا الثواب المرتجي : كفروا
كانما الدين درب من تجارتهم ، ان
واظبوا ربحوا او اهملوا خسروا ..!

اعطني الناي وغني ، فالغنا دين صحيح ..

وقوله :

اعطني الناي وغني ××× وانس
داء ودواء
انما الناس سطور ××× سطرت
لكن بماء

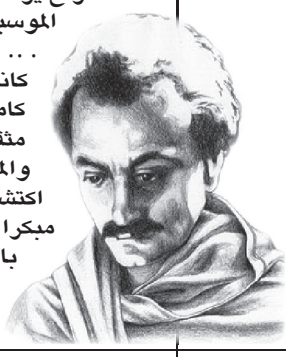

لعل الكثيرين لا يعرفون أن اغنب فيروز " اعطني الناي وغني هي مجرد مقتطفات من قصيدة جبران الطويلة الملحمية " المواكب " ، و يعجبنا مما جاء فيها : هل تحممت بعطر ؟ وتنشفت بنور ؟!
وقوله عن الدين : الدين في الناس حقل ليس يزرعه ، غير الأولي لهم في زرعه وطر فمن آمل بنعيم الخلد مبتشر ..... ومن جهول يخشي النار تستعر

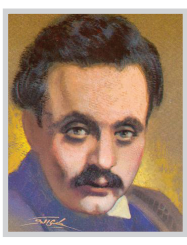

تحل في هذه السنة الذكرى التاسعة والسبعون لوفاة الأديب والشاعر اللبناني الكبير جبران خليل جبران ، الرجل الذي بلغت شهرته الآفاق ليس في الوطن العربي حسب وإنما في أميركا والعالم . فقد كتبت حوله آلاف الرسائل و الأطاريح والدراسات في مختلف الجامعات وخارجها . صدر الكتاب الذي بين أيدينا لـ (مناسبة) مهرجان جبران العالمي الذي أقيم في بيروت.

عودة إلى جبران خليل جبران

قاسم مطر التميمي

وقد جمع نصوصه وصنفه الدكتور بشروئي أستاذ الأدب الإنكليزي في الجامعة الأميركية في بيروت الذي قسم الكتاب الي جزءين ؛ جزء باللغة العربية والجزء الآخر باللغة الإنكليزية ، وعمد الى كل جزء فقسمه الى ستة أجزاء ، هي كما يلي : ١ . ترجمة مختصرة لحياة جبران . ٢ . مختارات من آثاره العربية . ٣ . مختارات من آثاره الإنكليزية . ٤ . مختارات من رسائله . ٥ . مختارات من النقد عنه . ٦ . ثبت بالمصادر . والقطع المختارة في كل جزء يطابق بعضها بعضاً رغم اختلاف اللغة ما عدا القسمين الأخيرين . واعتمد في (الترجمة المختصرة لحياة جبران) على الحقائق التي أوردها كل من الأستاذ ميخائيل نعيمة والدكتور خليل حاوي : الأول في كتابه (جبران خليل جبران : حياته ، مماته ، أدبه ، فنه) الصادر سنة ١٩٣٤م . والثاني في كتابه المنشور عام ١٩٦٣م .. ويحتوي هذان الكتابان علي أدق المعلومات التي جمعت عن حياة جبران حتى الآن . ولا سيما أن هناك معلومات خاطئة عن حياته ، معلومات اكتسبت سمة الحقائق الثابتة عند معظم الذين كتبوا عنه وخاصة من خارج لبنان . وتتحمل باربرة يونغ المسؤولية الكبرى في خلق هذه الأفكار الخاطئة التي ضمنتها كتابها : (هذا الرجل من لبنان)

عندما نقرأ جبران في كل ما كتب من (دمعة وابتسامة) الي (الأجنحة المتكسرة) الى (النبي) و (يسوع ابن الإنسان) و (آلهة الأرض) نراه لا يستعير صورة ولا موضوعاً من مهجره ، فكأنه يكتب في محيط شرقي ، وكأن أذنيه مسدودتان لا تسمعان ضجيج الدواليب وزئير المعامل والبواخر . وهو في أروع ما كتب باللغة الإنكليزية لا يتعدي هذه الحدود ، فالليل والناي والوادي والنهر ، والبحر والثلج والضباب مواد منتوجاته الأولى . يذكر البيدر والكروم ونواح المعصرة ، فكأن جرف المعصرة كان سريره ، والضباب أقمطته والبيدر ملعب صبوته .

إنشاء ، لدن ، مرن ، ناعم ، تعابير مملوءة ألواناً وموسيقى ، تنعشها نفس صوفية كانت المثال الأعلى لإخوان الرابطة القلمية . فعولوا جميعاً على هذا الأسلوب الناعم الطري الممزوج بالروح الصوفية وتفلسفوا كلهم في شعرهم ونثرهم .

إن جبران كاتب مقل مجود متعمل ، ولكن صقله الدائم لعبارته أخفى تعمله ، فكاد يكون إنشاؤه طبيعياً لا تحس أثر الصنعة فيه .

أما الطور الجبراني الثاني ، وهو طور الأقصوصة والقصة ، فلا ينحرف فيه جبران عن أسلوب (دمعة وابتسامة) إلا قليلاً . يتجه اتجاهاً ملموساً صوب الواقع لأن القص والحوار يحولان دون التحليق الكلي في سماء الخيال .

وقصص جبران جميعها بل أدب جبران كله قوامه الحب . فالحب هو القطب الجبراني وعليه تدور رحاه الطاحنة .. وما إغراقه في الصوفية إلا رجاء الخلود في حضن المادة ، والتنقل من حال الى حال ليظل يتمتع بمباهج الحياة وملذاتها . الحب الإنساني المادي هو أنشودة جبران وهو غرضه في جميع أقاصيصه . ففي قصته (الأجنحة المتكسرة) غنى الحب المقهور أعذب ألحان سمعها الأدب العربي . أما الطور الجبراني الثالث فهو طور الفلسفة . عبر فيه عن أفكاره باللسان الإنكليزي ، وأراد أن ينقل الي أميركا العملية صوفية الشرق ، فكتب لهم بلسانهم (المجنون) و (السابق) و (النبي) و (يسوع ابن الإنسان) و (آلهة الأرض) وفي هذا الكتاب الأخير غرق جبران في الرمزية الى ما فوق أذنيه . أما أثر جبران في الرابطة القلمية وما بعدها فلا يزال ملموساً ، فكل أعضائها اقتربوا من طريقته في التفكير والتعبير . فمقالة جبران (حفار القبور) وقصيدة الأستاذ ميخائيل نعيمة (أخي إن ضجّ ..) كأنهما من مقلع واحد ، وإن اختلفتا شكلاً . أما معتقد الخلود فواحد عندهم جميعاً . أما عن الأسلوب الذي اعتمدته هذه المدرسة (الرابطة القلمية) فيلخصه جبران بقوله : " يكتب بعضنا لمن ماتوا ، ولا يدري أن قرأه في المقابر . ويكتب بعضنا لإرضاء معاصريه حاسباً أن في ذلك العظمة والخلود فيخطئ المرمى . ويكتب بعضنا لأنه إن لم يكتب يمت وهذا من الخالدين يقول مارون عبود : " فزعيم أدب المهجر شخصية لها مميزاتها القوية وعناصرها المتمردة . فهو شرقي عربي ، لم يكتب ليمغرب الشرق بل كتب ليمشرق الغرب ويكون له رسول .. والشخص الفذ هو الذي يحتفظ بلونه لأنه في غنى عن الألوان التي يكسبها من محيط غريب . إن النوابغ يفرضون أنفسهم على الناس . والمجنون هو من يحاول طمسهم .. إنه كمن يبصق في وجه الهواء " .

لعل القليل من الناس يعلم أنّ جبران لا يقلّ براعةً في الرسم عن براعته في الأدب . فقد عرف رساماً قبل أن يعرف أديباً ، أو أنّه اشتغل في هذين الفنّين في مرحلةٍ واحدةٍ من حياته الحافلة بالعمل والإنتاج ؛ أقيم له أول معرض للرسم في مدينة بوسطن الأمريكيةً سنة ١٩٠٤ ومعرض آخر في قاعة مدرسة كمبرج بنفس السنة . أما أول كتاب صدر له ، وهو كتاب (الموسيقى) فقد صدر سنة ١٩٠٥ . وللتمرس في الفن فقد سافر سنة ١٩٠٨ الى باريس لدراسة الرسم والتصوير والنحت بمعهد الفنون الجميلة .

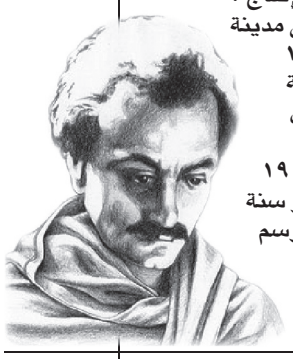

وقصص جبران جميعها بل أدب جبران كله قوامه الحب . فالحب هو القطب الجبراني وعليه تدور رحاه الطاحنة .. وما إغراقه في الصوفية إلا رجاء الخلود في حضن المادة ، والتنقل من حال الى حال ليظل يتمتع بمباهج الحياة وملذاتها . الحب الإنساني المادي هو أنشودة جبران وهو غرضه في جميع أقاصيصه . ففي قصته (الأجنحة المتكسرة) غنى الحب المقهور أعذب ألحان سمعها الأدب العربي . أما الطور الجبراني الثالث فهو طور الفلسفة . عبر فيه عن أفكاره باللسان الإنكليزي ،

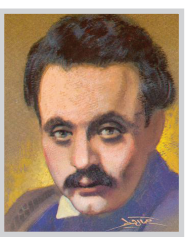

موت النبي الزائف لجبران خليل جبران

تحدث الأستاذ جورج ميخائيل ديب في مقدمة كتابه بوصايا شخصية لم تكن مماثلة للوصايا والحكم التي عرفتها حضارات الشرق ودياناته التاريخية ، بل كانت وصايا منطوية على توصلات حياتية وخبرة في مجال العلاقات / والفكر / والفلسفة / والأدب . وتميزت مفاصل مقدمته بالتنوع ، ولكنها لم تفترق عن بعضها بما تمثلت به من قيم ودعوات علمانية في مواجهة قضايا الإنسان المعاصر وعلاقة الأدب والفلسفة بقضايا الإنسان وقد توصل الأستاذ ديب إلى هشاشة العلاقة القائمة بين الأدب والفلسفة وتأثيرات الأدب السلبية على ممكنات تطور المجتمعات كما عبر عن حماسته ورغبته في تأليف كتاب حول علاقات الأدب بالعلم والدين عبر التاريخ ، لأنه يؤمن بان الأدب شارك العلم والدين النشأة المشتركة : هزيود وهوميروس وشعراء الملاحم البابلية عن الكون.

ناجح المعموري

ويلاحظ شيوع الخطأ الخاص بتاريخية التحققات الحضارية وخصوصا في مجال الأدب وهذا ما اتضح جليا في كلام الأستاذ ديب حول اشتراك نشأة الأدب والعلم والدين ، واعتمد على شاهدين هما هزيود وهوميروس وأضاف عليهما السبق التاريخي ، بينما كانا متأخرين كثيرا عن الذي كتب ملحمة جلجامش قبل ما أنجزها بألف عام . كما أجد ان تراتبية العلم في القائمة بين الأدب والعلم والدين ليست دقيقة تماما ولم تعرف الحضارات الشرقية هذه الحقول هكذا و دفعة واحدة ، ولا بد من إعادة ترتيبها من جديد ومثلما كان قائما في الحضارات وتاريخها وسأستعين برأي كاسيرر عن الجماليات في التاريخ، حيث اشار إلى وجود حاضنة تأريخية أولى هي التي احتوت اللغة والفن والدين ، وكان صعبا الفرز بين المعطيات الثلاثة أو العزل بينها لغاية عصور طويلة تبدّت عن فعاليات إنسانية جديدة عمقت المعطيات القديمة ورسمت لها ملامح وظيفية أكثر وضوحا لحظتها تبدّت عن وجود عناصر مشتركة لدى كل منها مع أخرى خاصة ومميزة للغة والفن والدين ، وفي هذا التكوين الجديد ومن خلاله تمكن تحديد الأطر الخاصة لكل منها وأيضا توصيف خصائصها لأنها ـ اللغة والفن والدين ـ تحولت تماما إلى مراكز خاصة ، وذات خصائص . من هنا وردا على الأستاذ جورج ميخائيل ديب كان الدينِ أول التشكلات في كل حضارات العالم ، مبتدئا بالسحر ونظامه المعروف وهذا رأي اتفقت عليه اغلب المدارس الانثربولوجية ومدارس التحليل النفسي وعلم الاجتماع وكان الأدب مكونا مشتركا مع الأسطورة وبعد ذلك كان العلم يتسلل بطيئا وحذرا بعد اكتمال معرفة الإنسان بالزراعة وتصنيع ما كان ضروريا . وفي تحديدات هيغل المعروفة كان السحر أولى المراحل الحضارية وبعده الأسطورة والدين والعلم.

وقدم توصيفا لشخصية جبران خليل جبران الفكرية حيث قال انه تعرف إلى علوم العصر الفلكية والبيولوجية ولكن بصيغة عمومية غير مستقصية ، وأدرك في الفلسفة ـ ولا سيما في نيتشة ـ انعكاس الطروحات العلمية على المفاهيم النظرية ، لكن رغم ذلك كله ، فان بنية أفكاره كانت دينية غنوصية ، مع شعرية رومانسية ، مالت إلى الالتزام في الطروحات الغنوصية والى محاولة التوفيق بين بعض العلوم الروحانية. لقد تمسك بالماضي وأراد إن يكون مستشرفا للمستقبل، لكن ـ وهذا هو المهم ـ بطريقة أخرجت المعارف العلمية عن طبيعتها ،وبث في كتاباته سواء عبر ترادف هذه الكتابات أو حتى في الكتاب الواحد بعينه ـ قدرا كبيرا من التشويش والتناقض ـ لقد استحال التوفيق إلى تلفيق ، وهذا التلفيق اعتمد التأويل الذي اخرج النصوص والمعارف ، سواء أكانت دينية أم فلسفية أم علمية عن مقاصدها وطبيعتها الأصلية . . . ص١٧

وهذا الرأي من أكثر الآراء وضوحا حول جبران وتوجهاته ، مثلما هو قاس وعنيف ، وصريح أيضا . وتوصل إلى خلاصة دراسته لمنجزات جبران كلها ، إلا انه ـ جبران ـ تلفيقي ، ويمارس التحايل عندما يقرأ النصوص وبطريقة ساذجة هي التي كانت سالكة آنذاك ومن خلال غنوصيّة صبيانية وباتت أفكاره لا هي مادية صرفا ولا روحانية تقليدية . وأشار ديب أيضا إلى اضطرارت جبران إلى المداورة البلاغية والخداع الأسلوبي استغل التشابه لدعم وجهة نظره . (هذا الخداع الاستغلالي / السفسطائي يشكل جزءا مهما من توصلاتي ، ليتضح أخيرا كيف يعتمد التشكيل الفكري الملفق على مداورة كتابية معسولة الألفاظ ومغتصبة التشابيه) . . . ص١٧

تضمن الكتاب ـ وهو في الأصل رسالة ماجستير ـ قسمين ، في الاول ثلاثة فصول وفي الثاني ثمانية فصول .

ولا بد من الإشارة إلى إن هذه الدراسة حازت أكثر من صفة . وأهمها القراءة الدقيقة لكل ما أصدره جبران وموضوعيتها ، مثلما اتصفت بالشجاعة في ملامسة الأعماق المغيبة في آراء جبران خليل جبران الغنوصية المغلفة برومانسيته التي استفادت من غنائية شعرية ، غنوصيته الكاشفة عن عدوانيته للمعرفة الفعلية والعلم الطبيعي وإجازات الحضارة ويتهمه الباحث بالتماهي تماما مع اشعيا وارميا وهما أسوأ ما عرفته الديانة اليهودية حيث تميزت إسفارهما بالندب والمراثي والشكوى والإحساس بالخيبة وعودة اليهودية من توحيدها نحو الوثنية وعاودت الإلهة الكنعانية مراكزها المهمة في الديانة اليهودية وعاودت الطقوس والعقائد حركتها .

كما إن إشارة الباحث الموحدة بين جبران وارميا واشعيا تعبر ضمنا عن التعالي والانانية التي ميزت حياة جبران . وينفي تأثر جبران بالمفكر نيتشه ، لكنه ظل مع الإنجيل يعملان معا فيه ويؤكد على إشارات ميخائيل نعيمة على وجود خلافات بين جبران ونيتشه ، وفروق مهمة بينهما مثلما قال خليل حاوي .

واستقرأ الباحث شخصية جبران وقدم توصيفا غنوصيا لها . حيث قدم ـ جبران ـ تعريفا لكل شيء انشغل به وتعامل وإياه بوصفه نتاجا روحانيا ومن دلائل الاختلاف بين جبران ونيتشه الموقف من الموسيقى والإله ابولون ، حيث اعتبره جبران ألها للموسيقى فقط ، بينما تعامل معه نيتشه بوصفه رمزا لعقلية بلاد الإغريق ، ومعروف إن الفيلسوف نيتشه قد قسم الفكر الإغريقي إلى نموذجين أولهما الابولونية وثانيهما الديونوسيسية . ويقدم الباحث في ص ٣٨ ـ ٣٩ عديدا من آراء جبران خليل جبران عن الأبدية والعلاقة مع الحياة والموت . . . . الخ .

ويؤكد هيمنة اللاهوتي عليها والغيبي أيضا يتبعه بالخيال الرومانسي وخيالات عوالم غريبة ص٣٩ .وتتضح غنوصيته في العودة كثيرا إلى العهد القديم والجديد وإعادة صياغة ما هو مهتم به ومؤثر فيه فلم يكتف بأمتصاص سفري اشعيا وارميا ، بل حاز على نصوص من سفر الحكمة التي اعتبرها من خصائص الإلوهية ، وهذا يتطابق بوضوح مع سفر الحكمة في التوراة ويؤكد تأثره بقراءته وثبات ذلك في ذهنه . والحكمة الإلوهية تضع على صفحات الشاعر سفرها الذي يدركه الأمي وهذا مهم لأزدرائه التعلم وإيمانه بالبساطة الأمية الكافية لمعرفة الحكمة الإلوهية بالمشاعر فقط . . .ص٥٢

ويضمر التفكير لدى جبران ويعيد كل شيء في الحياة إلى ما هو روحي وسيادة الغنوصية حيث الموطن الضبابي الروحاني الغامض تجتمع الرومانسيات بالصوفيات ، وتغدو روحانية معظم الشعراء الرومانسيين مصطبغة غالبا بالصوفية تمثيلا بل وبالنزعة الاشراقية ص ٥٥ وحماسات جبران في العودة إلى إسفار العهد القديم والأناجيل ، تمثيل لوظائف النبوة التي كانت آنذاك ، ولذا تماهى كما أشار الباحث مع اشعيا وارميا وسفر الحكمة ، ومثلما أعاد توظيف رأي يارد: الشاعر والنبي واحد في نظر الرومانسيين ، لأن كلا منهما يدرك الحقيقة بالحدس أو الوحي أو القلب أو الخيال ، وهي حقيقة لا يستوعبها العقل من التزم حدوده . . . .

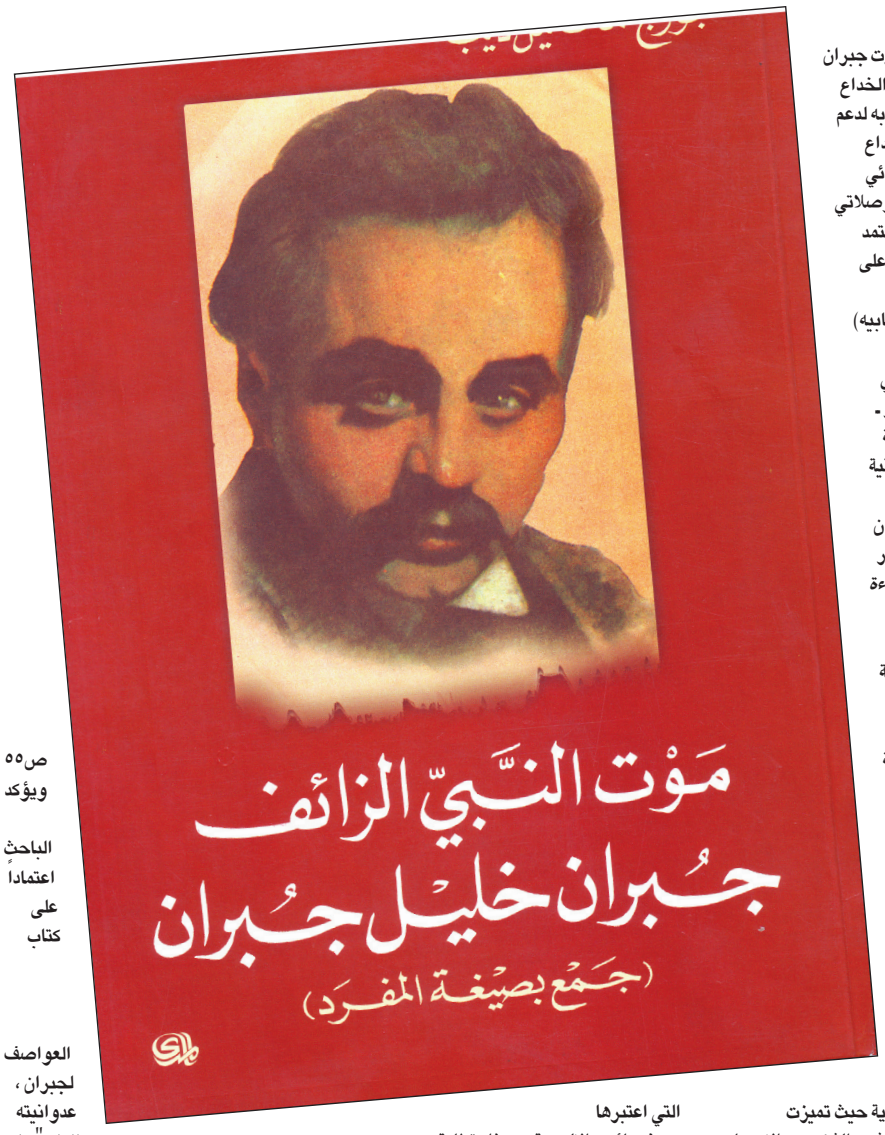

ص٥٥ ويؤكد

الباحث اعتمادا على كتاب

العواصف لجبران ، عدوانيته للعلم " ما الاكتشافات والاختراعات سوى الاعيب يتسلى بها العقل وهو في حال الملل والضجر . . . أما تلك الألغاز والأحاجي التي يدعونها بالمعارف والفنون فهي قيود وسلاسل " . . . .ص٥٥ وتوفر الفصل السادس من القسم الاول على قراءة واضحة عن علاقة جبران مع المرأة والموقف الديني منها ، حيث أشار المؤلف إلى توصلات كل من غسان خالد وخليل حاوي إلى اوديبية جبران ومعاناته من هذه العقدة "الكؤوس لا تستميل نفوسنا حتى يشف بلورها عن لون الخمر " ، "سحقت الكأس التي شربت فيها السم الذي استطيبته" أو "الرفيق الحقيقي نصف المرأة المخلوق لها منذ الأزل والى الأبد لأن الله أعطاها لحبيبي قبل معرفتي حبيبي " ... ص١٧٥

ويضيء الكشف جانبا مهما من شخصية جبران ، وهو علاقته مع المرأة والاتهامات المثارة حول قدرته الالتقاء الجنسي وتأكيدات عديدة أشار لها يوسف الحويك في (ذكرياتي مع جبران) من انه كان عنينا أو "لقد كان حييا ، يجيد فنون الغزل فقط في الكتابة والكلام ، هذا ما استمع له الحويك من نساء تعرفن على جبران والذي كانت له حاسة لمس مفرطة تحجم به عن لمس أي امرأة تقريبا" وأشار الأستاذ ديب إلى التصعيد الفرو يدي ، فجزء من روحانيته هذه تصعيد فرويدي إلى جنة العواطف العلوية . يقول لهاسكل عام ١٩١١: من الأفضل إن تكون فينا رغبة وان نبدل هذه الرغبة ونرفعها إلى شيء أسمى ، وكذلك اعتقد ان جزءا كبيرا من قوتي الجنسية يتحول وينصب في نتاجي " ص١٧٨

ويذكر الباحث رأيا آخر سجله هاسكل : "إن المتصوف يقول إن المرأة في قرارة نفس الفنانِ هي مصدر قوته وأملي إن تكون المرأة التي في امًا صغيرة " . . . ص ١٧٩ ويسجل الباحث رأيا للشاعر ادونيس : "اللحظة التي يكون فيها الصوفي مأخوذا بالآخر المحبوب لحظة نشوة ، في مثل هذه اللحظات ينصهر الواقع والخيال في واقع مطلق ، فوق الواقع ، ويلتقي الحلم واليقظة في حالة خاصة عليا والحب في ذلك أوسع من إن ينحصر في الرغبات الجنسية انه المحرر الاول للإنسان " . . . .ص١٧٩ واتضح الأستاذ ديب في هذا المستل من كتاب ادونيس الصوفية والسريالية خاضعا للانتقائية لأنه وفي بداية الكتاب وإثناء حديثه عن المعاصرة والحداثة يشن نقدا لاذعا وعنيفا ضد ادونيس ويتحول كله ـ ادونيس ـ إلى تهمة "ادونيس صيغة حداثية عن لهان وصوفيين قدماء . . . داعية روحاني يتلفظ بألفاظ كبيرة فارغة وعبارات مثل : "إذا عبرت النهر فستنهار مملكة لكن مملكة من ستنهار" . . . ص١٠

ويحلل الباحث في القسم الثاني وحصرا في توظيفات جبران للرموز عددا من النصوص ويستخلص منها رموزها ويؤشر دلالتها ويختلف مع غيره من الباحثين ، مثل خليل حاوي ، الذي درس رمزية جبران . والملاحظة الجوهرية حول كتاب الأستاذ جورج ميخائيل ديب هي عدم اهتمامهِ بالمرجعيات المكونة لنصوص جبران والمُشكلة لتجربة غنوصية مهمة ، وهذا يعني بأن جبران متصل مع كل التجارب الغنوصية في الشرق ابتداء بالإسكندرية / فارس / كنعان / العراق القديم وهناك دلائل كثيرة تومئ بوضوح إلى اهتماماته الفلسفية الواضحة بالديانات الهندية العديدة وهناك التماعات حول ذلك ، مثلما تضمنت بعض مراجعه إشارات صريحة حول الأنساق الإلهية في الديانات الهندية وهيمنة الوصايا البوذية هذا كله يمثل مرجعا واضحا لأشتغالات جبران الفكرية والفنية واعتقد بان ما تضمنه الفصل الثالث من القسم الاول عن أشارات حول مركزية فكرة التقمص والتي المح فيها إلى آراء ومواقف فلسفية في الديانات الهندية القديمة .وأخيرا اختصر لنا الباحث شخصية شاعر وفنان ومفكر بشكل دقيق وتعامل معه بوصفه تلفيقيا وعدوا للعلم والتقدم وتضح" شخصيته بالتناقض وسيادة الغموض الأصيل لا الرمزي في كتابات جبران ، وتناقضات أقواله التي هي من صلب تكوينه الشعري ".

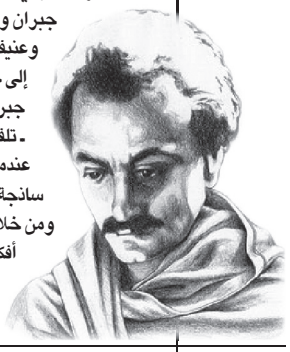

إن إشارة الباحث الموحدة بين جبران وارميا واشعيا تعبر ضمنا عن التعالي والانانية التي ميزت حياة جبران . وينفي تأثر جبران بالمفكر نيتشه ، لكنه ظل مع الإنجيل يعملان معا فيه ويؤكد على إشارات ميخائيل نعيمة على وجود خلافات بين جبران ونيتشه ، وفروق مهمة بينهما مثلما قال خليل حاوي .
واستقرأ الباحث شخصية جبران وقدم توصيفا غنوصيا لها .

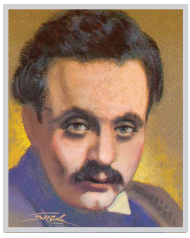

هذا أول كتاب أصدره جبران باللغة الانجليزية، وذلك عام ١٩٢٣م ، فكان له الدويّ الهائل في الولايات المتحدة الأمريكية، ما لم يكن جبران يتوقعه، وسبب هذا الانتشار العظيم الذي أحدثه " النبي" تلك المسحة الشرقية الصوفية الرومانطيقية التي تغلف فصول الكتاب، وهذه اللغة التي تعودها الناس في الكتب المقدسة وحدها، ثم هذا النضوج التام الذي كشف عن كنوز فكرية عالمية تضمّنها كتاب النبي ، فلم تكن أحداثه أو أشخاصه وقفاً على المجتمع الشرقي عامة، واللبناني خاصة، كما كانت الحال بالنسبة للكتب السابقة التي وضعها جبران قبل " النبي" ، وإنما شملت أحداث الكتاب وأشخاصه كل مكان وزمان ، لأن المُثل الرُوحية ، والقِيم العُلا هي بنات الفضيلة الإنسانية التي لا تتبدل بتبدل المراحل الزمنية، والإطارات المحلية.

(النبي) لجبران خليل جبران

ولقد كان ينعقد شبه إجماع ، لدى الكتاب والنقاد ، أن النبي هو ذروة الإنتاج الجبراني ، بحيث أن كل ما سبقه تمهيداً له ، وكل ما لحقه خلاصة منه.

ومن ذلك قول الناقد الأمريكي " برز باين" : ((لو كنت من المؤمنين برجوع المسيح إلى الأرض ، لأيقنت أنه عاد في شخص جبران هذا)).

افتتح جبران كتابه بالحديث عن مدينة " أورفليس" التي يقول فيها أن " النبي" أو " المصطفى" أو " المختار الحبيب" – كما يسميه في الكتاب – انتظر فيها إثني عشر عاماً عودة سفينته، لتحمله إلى جزيرته التي طال عنها غيابه ، ويصور ساعات الوداع ومادار في نفسه وقتها...

وهذا شيء مما جاء في هذا المقطع: ((كثيرة هي أجزاء روحي التي فرقتها في هذه الشوارع و كثير هم أبناء حنيني الذين يمشون عراة بين التلال فكيف أفارقهم من غير أن اثقل كاهلي و أضغط روحي ! فليس ما أفارقه بالثوب الذي انزعه عني اليوم ثم ارتديه غدا ، بل هو بشرة أمزقها بيدي ، كلا و ليس فكراً أخلفه ورائي بل هو قلب جمّلته مجاعتي و جعله عطشي رقيقاً خفوقاً ، بيد أني لا أستطيع أن أبطئ في سفري)).

وقبل الوداع والفراق يأتيه الشيوخ والكهان (سكان هذه المدينة) يرجونه ألا يفارقهم ، وهنا تخرج امرأة عرّافة تدعى" المطرة" وكانت أول من آمن به وطلبت منه أن يخطب فيهم قبل أن يفارقهم ، حتى يثبت كلامك فينا ونتوارثه جيلاً بعد جيل.

وراحوا يسألونه فيجيبهم ، وقد دارت خطبه حول مواضيع المحبَّة، والزواج ، والأبناء ، والعطاء ، والغذاء، والعمل، والترح، والفرح، والمساكن، والثياب، والبيع والشراء، والجرائم والعقوبات، والشرائع، والحرية، والعقل، والعاطفة، والألم، ومعرفة النفس، والتعليم، والصداقة، والحديث، والزمان، والخير والشر، والصلاة، واللذة، والجمال، والدين، والموت، وكل ذلك بأسلوب شبيه بما تعودناه في الكتب المقدسة.

وقد ذهب البعض وأنا أتفق معهم إلى أن (النبي) ينطوي على رموز وتلميحات ، فالنبي هو جبران نفسه، وأورفليس هي أمريكا، وجزيرة النبي هي لبنان، والمطرة هي ماري هاسكل.

يتميز كتاب (النبي) عن بقية مؤلفاته ، أنه هادئ النبرة ، لايتسم بالعنف الذي تتسم به كتبه ، أيضاً يظهر لنا وبقوة النظرة الشاملة التي عمد إليها جبران ، والفكرة المضغوطة في عبارات قلائل، كما

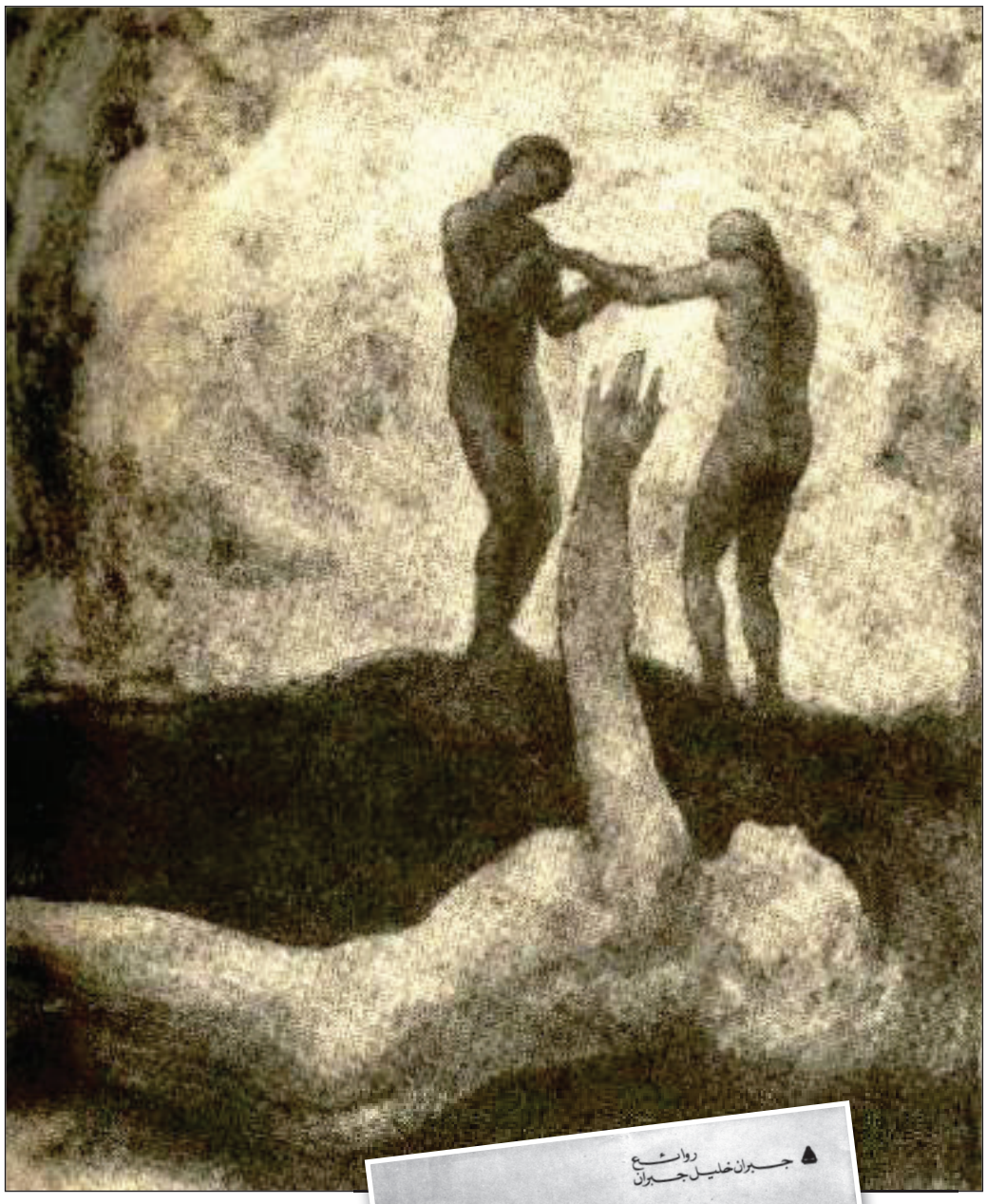

يتسم ببعض الغموض والإبهام، مما يجعلنا لا ندرك في يسر، المعنى المباشر الذي يقصد إليه كاتبنا ، وكأني بجبران قد تبين هذا في أسلوبه ، فإذا هو يعمد إلى الدفاع عن نفسه، في بعض البراعة، قائلاً: ((إن رأيتم في أقوالي غموضاً،فلا تحاولوا شرحها ، لأن الغموض مبدأ كل الأشياء، لكنه ليس نهايةً لها ، وأودُّ أن تذكروني مبدأ لا نهاية .فالحياة ، وكل ما يحيا ، وما ينشأ في الضباب، وفي الغموض، لا في البلور الصافي، ومن يدري أن البلور ليس إلا ضباباً متبدداً...)) حين تناول جبران المحبة فقال: إن المحبة تكللكم فهي أيضا تصلبكم ، وكما تعمل على نموكم هكذا تعلمكم و تستأصل الفاسد منكم ، و كما ترتفع إلى أعلى شجرة حياتكم فتعانق أغصانها اللطيفة المرتعشة أمام وجه الشمس ، هكذا تنحدر إلى جذورها الملتصقة بالتراب و تهزها في سكينة الليل المحبة تضمكم إلى قلبها كأغمار الحنطة، و تدرسكم على بيادرها لكي تظهر عريكم، و تغربلكم لكي تحرركم من قشوركم ، و تطحنكم لكي تجعلكم أنقياء كالثلج و تعجنكم بدموعها حتى تلينوا، ثم تعدكم لنارها المقدسة لكي تصيروا خبزا مقدساً يقرب على مائدة الرب المقدسة، كل هذا تصنعه المحبة بكم لكي تدركوا أسرار قلوبكم فتصبحوا بهذا الادراك جزءاً من قلب الحياة).

و (المحبة لا تعطي إلا نفسها ، و لا تأخذ إلا من نفسها، المحبة لا تملك شيئا و لا تريد أن يملكها أحد ؛ لأن المحبة مكتفية بالمحبة،أما أنت إذا أحببتَ فلا تقل : " إن الله في قلبي " بل قل بالأحرى : " أنا في قلب الله). جاءت عنده أقوى من القوة، وأعظم من الخيال، فنجد جبران في مذهبه هذا ، أصدق من نيتشه، ووليم بلايك ((يقول جبران في غير هذا الكتاب: إن قوة الإنسان وخياله أنتجتا القنبلة الذرية ، ولكن من يدفع شر القنبلة الذرية سوى مبدأ عُلوي: مبدأ المحبة؟!)) وبمثل هذه الروح ، يتحدث جبران عن العطاء ، فبعد أن تكلم عن المُعطي اشار إلى المُعطَى بقوله : ((أمَا أنتم الذين يتناولون العطاء و الإحسان و كلكم منهم فلا تتظاهروا بثقل واجب معرفة الجميل لئلا تضعوا بأيدكم نيراً ثقيل الحمل على رقابكم و رقاب الذين أعطوكم ، بل فلتكن عطايا المعطي أجنحة ترتفعون بها معه ؛ لأنكم إذا أكثرتم من الشعور بما أنتم عليه من الدين فإنكم بذلك تظهرون الشك و الريبة في أريحية المحسن الذي أمة الأرض السخية و أبوه الرب الكريم))

ومن أقوال جبران التي تستأثر بالإعجاب، خطبته عن الألم، ومنها قوله: ((إن ما تشعرون به من الألم هو انكسار القشرة التي تغلف إدراككم، و كما أن القشرة الصلدة التي تحجب الثمرة يجب أن تتحطم حتى يبرز قلبها من ظلمة الأرض إلى نور الشمس ، هكذا أنتم أيضا يجب أن تحطم الآلام قشوركم قبل أن تعرفوا معنى الحياة لأنكم لو استطعتم أن تعيروا عجائب حياتكم اليومية حقها من التأمل و الدهشة لما كنتم ترون آلامكم أقل غرابة من أفراحكم)).

اتمنى ان تستمتعوا برواية النبي لانها فعلا تحتاج لتأمل.

عن كتاب روائع جبران ترجمة ثروت عكاشة

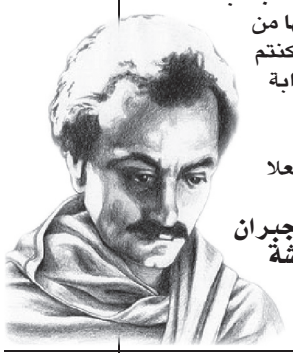

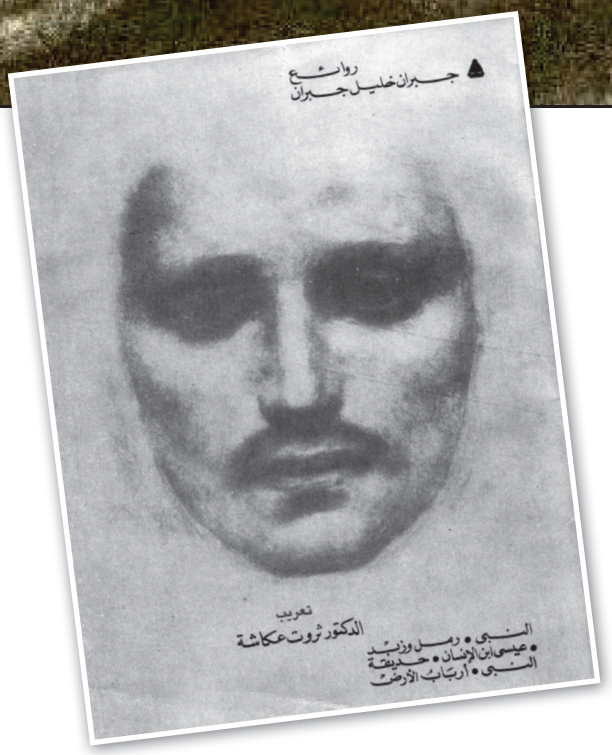

جبران مع جماعة المهجر

جـــبـــران وادب المـــهـــجر

عبد الجبار داود البصري

حظي الأدب المهجري بعناية الدارسين ونقاد الأدب ومازال كذلك، ولهذا الأدب محبوه ومتذوقوه ، فقد كان فتحا في أدبنا الحديث، فتح عيوننا على مباهج الحياة،وروعة المغامرة و إغراء الحرية ،بعد أن ظل أدبنا أحقابا طويلة نائما في مغارة التاريخ مغمضا عينيه عن مستجدات الحياة مكتفيا بالاجترار من الكتب القديمة ،وكد الذهن لا في توليد المعاني البكر، بل في تنميق الكلام و الولوع بالأسجاع واللهاث وراء التورية وفي مباركة الأوضاع القائمة وهي أوضاع مزرية تميزت بالركود الاجتماعي والتأسن الثقافي والاستبداد السياسي وكانت غاية الأدب أن يصل إلى البلاط مسبحا بحمد الحاكم آناء الليل وأطراف النهار لتحقيق مآرب شخصية مضحيا بمصلحة الجماعة لحساب المصلحة الشخصية خرج الأدب المهجري إذا من رحم المعاناة مبشرا بعصر الخصوبة وبقيام طائر العنقاء من رماده صحيحا معافى وهو يحمل معول الهدم منقضا على سفاسف الماضي معليا صرحا جديدا من الأدب الخلاق المتميز بصدق الشعور ونزعة التجديد والغيرة على حاضر الأمة ومستقبلها متزودا من الثقافة العربية الأصيلة والغربية البناءة ، مستفيدا من أرض ترعرع فيها هي الأرض الجديدة – أمريكا الشمالية والجنوبية – حيث للفرد قيمة وللعلم المكانة الأولى – إنها مجتمع الصناعة والتقدم و الإبداع والرفاه المادي والمعنوي وكل هذه العوامل مجتمعة وجدت صداها في عقول وضمائر و إنتاج أدباء المهجر الأدبي والفكري . ونحن في هذا المقال راصدون لقيم إنسانية تضمنها الأدب المهجري تاركين القيم الأخرى كالجمالية والفكرية لمقالات أخرى و إنه لحقيق بنا نحن ورثة هذا التراث الأدبي الضخم أن نتمثله كما يتمثل الجسم الغذاء صانعا منه نسغ الحياة و أسباب الحصانة وعوامل القوة خاصة ونحن نعيش في عصر تميز بالتطرف الديني والنزاع الطائفي وسيطرة الفكر العبثي السلفي أو العدمي التغريبي خاصة ومجتمعنا العربي يحمل في ثناياه اختلافات مذهبية هي في الأصل مصدر ثراء له ولو أنه يراد لها أن تكون عوامل تصدع وفرقة ، أضف إلى ذلك انفتاح العالم وتطور المعلوماتية في أرقى تجلياتها — أي الثورة الرقمية – وسيطرة المؤسسات الاقتصادية العابرة للقارات والتي غزت أسواقنا بمنتوجاتها الغثة والسمينة وما نحن في حاجة إليه وما نحن في غنى عنه والتي أدت في النهاية إلى تسطيح الفكر والشعور والجري وراء بريق الألفاظ دون أن نكلف أنفسنا عناء البحث عن المضمون،إنها عولمة حولتنا إلى كائنات طفيلية مستقبلة ومستجيبة لكل المثيرات الواردة من الضفة الأخرى ، وكأن صرخة المهجريين في النصف الأول من القرن الماضي ذهبت أدراج الرياح فقدعدنا إلى الدجل على حساب العقلانية و إلى الطائفية على حساب التسامح الديني وإلى التقليد على حساب الاجتهاد و إلى العبودية على حساب الحرية و إلى الشكلانية على حساب المضمون ، وما أحرانا اليوم أن نعود إلى تلك القيم الإنسانية التي تضمنها الأدب المهجري وصدع بها وعاش لأجلها فهي التي ستعصمنا من الغرق في خضم الحضارة الحديثة .فما مجمل القيم الإنسانية التي تضمنها هذا الأدب ؟ لعل أول قيمة من قيم الأدب المهجري هي التسامح الديني ولقد عبر عن هذا المعنى أبلغ تعبير الأديب اللبناني الكبير مارون عبود ، وهو إن لم يكن مهجريا فقد تميز في حياته وفي فكره بهذه الخصيصة خصيصة التسامح الديني قال عبود : " سميت ابني محمدا نكالا في أبي الذي أسماني مارون " . و إن كان فحوى هذه المقولة التأكيد على مبدأ العروبة فاسم محمد أ لصق بالفكر والانتماء العربيين من اسم مارون، إلا أن العروبة و الإسلام لصيقان لا يمكن الفصل بينهما وهذا ما عناه كاتب عربي مارووني هو الأستاذ مارون عبود ، وهو بذلك يؤكد انتماءه لحضارة الإسلام ، لقد كان شعراء المهجر وجلهم من المسيحيين يعتبرون الإسلام بعدا روحانيا وفكريا مهما في تكوينهم النفسي و العقلي فضلا عن كونه رابطا قوميا لذا تراهم يذكرون الإنجيل إلى جانب القرآن ومحمدا إلى جانب يسوع في تآلف ومودة ، قال الشاعر رياض المعلوف وقد كان مغتربا في البرازيل من قصيدة " الله والشاعر"

يا صاحب الملك الذي لا ينتهي
أبدا وسدته الملأ والسرمـد
فالشعـر في إنجيلنا وكتابنا
والشاعران هما المسيح و أحمد

و تأمل أيها القارئ استخدام الشاعر لضمير الجماعة في قوله" كتابنا " وهو يقصد القرآن الكريم مؤكدا انتماء المسيحيين العرب لحضارة الإسلام. و أما الشاعر القروي رشيد سليم الخوري المغترب في البرازيل والذي عرف بنزعته القومية الحارة وغيرته على الأمة العربية وقد كرس شعره داعيا إلى الحرية والعزة ، ها هو في صرخته ضد الباطل يدعو إلى الأخذ بأسباب القوة والتضحية في سبيل عزة الوطن مقتبسا عن القرآن الكريم معنى الآية الكريمة : " و أعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل" ولم تثنه مسيحيته عن الانتصار لهذا المبدأ القرآني يقول القروي :

أحبوا بعضكم بعضا وعظنا
بها ذئب فما نجت قطيعـا
إذا حاولت رفع الضيم فاضرب
بسيف محمد واهجر يسوعا

وتراه في قصيدة أخرى بمناسبة عيد الفطر يمتدح النبي محمدا- عليه الصلاة والسلام- ويفرح لرؤية الهلال يعانق الصليب بعد أن تنجلي غاشية الاستبداد و الاستعمار

أكرم هذا العيد تكريم شاعر
يتيه بآيات النبي المـعظم
ولكنني أصبو إلى عيد أمة
محررة الأعناق من رق أعجمي
إلى علم من نسج عيسى و أحمد
و أمنة في ظله أخت مريـم

و يصر الشاعر إلياس فرحات المغترب في البرازيل على انتمائه العربي فوطنه هو الشام والعراق و أرض الكنانة و أرض الجزيرة التي توحي في الوجدان العربي بظهور الدعوة الإسلامية و انتشار الإسلام وهذا المقطع من أشهر ما انتشر من شعر المهجريين :

إنا و إن تكن الشآم ديارنا
فقلوبنا للعرب بالإجـمال
نهوى العراق ورافديه وما على
أرض الجزيرة من حصا و رمال
وإذا ذكرت لنا الكنانة خلتنا
نروى بسائغ نيلها السلسـال
بنا ومازلنا نشاطر أهلها
مر الأسى وحلاوة الآمال

وكذلك كان الشاعر السوري ميشال مغربي المغترب في ساو با ولو بالبرازيل فهو أيضا يحلم بغد عربي مشرق يتعانق فيه الصليب والهلال ويعمل العرب جميعهم – مسلمون ومسيحيون – لما فيه خير الأمة العربية :

الأم تجمل في عين وليدهـا
حتى ولو في أخلق الأسمال
حي الحيا دون المواطن موطنا
فيه أرى داري و أنظر آلي
و يظللني علمي الذي في قلبه
يثوي صليبي في جوار هلالي

أما زعيم أدباء المهجر و كبيرهم الذي علمهم السحر جبران خليل جبران فقد تميز بتسامح ديني ظاهر في كتاباته وهو كصحبه يعتبر الاختلاف المذهبي في الشرق مصدر غنى وما ذكر المعبد في كتاباته إلا ذكر الجامع وما ذكر الهيكل إلا ذكر المحراب ولو أن فلسفة جبران وموقفه من الأديان يختلف عن موقف صحبه إلا أن الجامع بينهم جميعا هو نبذ العصبية الطائفية والفرقة على أساس اختلاف الدين فالدين لله والوطن للجميع . وتسلمنا قراءة آثار المهجريين إلى اكتشاف خصيصة ثانية تنم عن نزعة إنسانية مكينة في أدبهم أصيلة في أنفسهم وهي الصفح حين الخطأ في حقهم مع الحب الخالص ولسان حالهم يقول مع المثل العربي : " إذا عز أخوك فهن " يقول الشاعر زكي قنصل المغترب في الأرجنتين:

أنا إن شكوت فدمعتي من جفنكم
و إذا شدوت فصوتكم قيثاري
مرحى بني أمي لأنتم مفزعي
في النائبات وأنتم أظفاري
في ظلكم نبتت خوافي شهرتي
وزها جناحي و استطار غباري

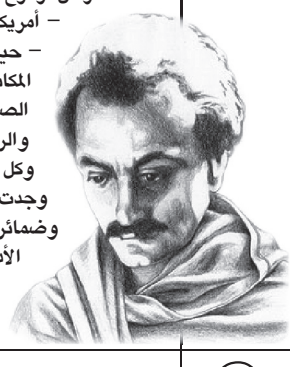

تأمل أيها القارئ استخدام الشاعر لضمير الجماعة في قوله" كتابنا " وهو يقصد القرآن الكريم مؤكدا انتماء المسيحيين العرب لحضارة الإسلام. و أما الشاعر القروي رشيد سليم الخوري المغترب في البرازيل والذي عرف بنزعته القومية الحارة وغيرته على الأمة العربية وقد كرس شعره داعيا إلى الحرية والعزة ، ها هو في صرخته ضد الباطل يدعو إلى الأخذ بأسباب القوة والتضحية في سبيل عزة الوطن

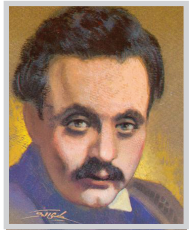

واقرأ هذه الأبيات للشاعر ندرة حداد المغترب في أمريكا و تأمل ما احتوت عليه من تسامح ومغفرة و إنها لكنوز أخلاقية حقيق بنا أن نتمثلها في الحياة أحسن تمثيل :

أنا راض بالعصا يا
أيها الحامل رمحك
و سأرضى خبزك الـ
أسود في الحب وملحك
و سأنسى جرح قلبي
كلما شاهدت جرحك
و إذا أخطأت نحوي
فأنا أطلب صفحـك

ونفس النزعة نزعة التسامح تطالعك و أنت تطالع الشاعر مسعود سماحة المغترب في أمريكا تصدر عن الحب المحض للانسانية :

كأني لم أترك للغير شؤونه
كأني عالجت غير شؤوني
وكم من صديق لم أخنه فخانني
و مؤتمن قد بات غير أمين
إذا جزت سهلا في الزمان فإنما
ستسري بوديان به و حزون
و لإيليا أبي ماضي صاحب " الجداول " و " الخمائل " في هذا المضمار صولات وجولات وهو صاحب القصائد البديعة الداعية إلى الحب الإنساني و التحلي بآداب الاختلاف و الاعتصام بمبدأ التسامح وهذه الأبيات خير ما ندلل به على هذه النزعة :

إني إذا نزل البلاء بصاحبي
دافعت عنه بناجذي ومخـلبي
وشددت ساعده الضعيف بسا
عدي وسترت مكنبه العري بمنكبي
و أرى مساوئه كأني لا أرى
و أرى محاسنه كأن لم تكـتب
و ألوم نفسي قبله إن أخطأت
و إذا أساء إلي لم أعتـب

و لا يمكن أن نغفل " ناسك الشخروب " ميخائيل نعيمة المغترب في أمريكا قبل التوحد في مغارة بمسقط رأسه " بسكنتا " وله قصيدة رائعة طافحة بالمعاني الإنسانية النابذة للحرب الداعية إلى الأخوة والتسامح وهي من قبيل الشعر المهموس كما وصف هذا اللون من الأدب الناقد الكبير المرحوم الدكتور محمد مندور، ذلك الأدب الخافت الصوت الذي يلج إلى القلب مباشرة ويستقر في قراراته محولا سلوك الإنسان إلى سعي حثيث نحو معارج الانسانية الحقة يقول نعيمة:

أخي إن ضج بعد الحرب غربي بأعماله
وقدس ذكر من ماتوا وعظم بطش أبطاله
فلا تهزج لمن سادوا ولا تشمت بمن دانا
بل اركع صامتا مثلي بقلب خاشع دام
لنبكي حظ موتانا

وتأمل أيها القارئ استهلال المقطع بكلمة " أخي" وهي كلمة استهل بها الشاعر كل مقطع من مقاطع القصيدة، وماتفعله في القلب- قلب القارئ- عربيا أو أعجميا كان ! وأما الثورة على الظلم والتنديد بالطبقية واستغلال الإنسان لأخيه الإنسان فالشعر المهجري خير شعر جاهر بذلك وقد هرب أولئك المهجريون من بطش العثمانيين وآلمهم ماتركوا أوطانهم فيه من جور وفساد وامتصاص الأقوياء لدماء الضعفاء واستشراء الفساد والإقطاع وقد أمدهم وجودهم في العالم الجديد بمعاني العدالة الاجتماعية والمساواة والكرامة الإنسانية وبزاد وفير منها بل امتد نقدهم حتى إلى المجتمع الأمريكي ذاته، وخير أديب ندد بذلك هو فيلسوف " الفريكة" أمين الريحاني حين فضح استغلال البيض للسود وتردي انسانية الإنسان بهذا الإنتهاك الصارخ للكرامة البشرية في بلد تغنى بالحرية واتخذ لها النصب . وفي مطولة " على بساط الريح" للشاعر الشاب فوزي المعلوف الذي قضى في ريعان العمر تنديد بهذه المظالم يقول فوزي:

أنا عبد الحياة والموت أمشي
مكرها من مهودها لقبوره
عبد ماضمت الشرائع من جور
يخط القوي كل سطوره
بيراع، دم الضعيف له حبر
ونوح المظلوم صوت صريره

وشارك الشاعر شفيق المعلوف أخاه فوزي هذه الخصيصة فامتد حدبه حتى على الفلاح ورأى على جبينه النور ولم يره على جبين السلطان:

وفى الحياة ديونـها
كرما وما وفيت ديونه
عرق الجهاد همى على
عينيه فانطبقت جفونه
هلا نظرت جبينـه
كم فيه لؤلؤة تزينه
ضنت عليه بالدموع
عيونه فبكى جبينه

وتعتبر قصيدة " المواكب" لجبران إنجيل الثورة ضد تردي القيم وميوعة الإنسان وتحلل القيم ونشاز النفس الإنسانية فيصير الاستغلال قيمة والظلم مبدأ انسانيا يقول جبران :

والعدل في الأرض يبكي الجن لوسمعوا
به ويستضحك الأموات لو نظروا
فالسجن والموت للجانين إن صغروا
والمجد والفخر والإثراء إن كبروا
فسارق الزهر مذموم ومحتـقر
وسارق الحقل يدعى الباسل الخطر

وأما الحرية تلك الحورية التي لهج بذكرها الشعراء وضحى في سبيلها الأعيان والعلماء والتي هي الغاية والمبتغى من الوجود الإنساني والتي يؤدي غيابها إلى عبثية الوجود بل عدميته، وهل الإنسان إلا ذلك الكائن الذي يتميز عن غيره من الموجودات بالنزوع إلى الحرية والوعي بها؟، فهي قيمة انسانية تستحق أن يضحي لأجلها الإنسان، وقد أخذت من اهتمام أدباء المهجر الكثير، وما لجأوا إلى العالم الجديد إلا سعيا لأجلها وهروبا من أغلال الاستبداد وقيود الحاجة التي تحيل الكائن البشري إلى ورقة ذاوية تتقاذفها الرياح ذات اليمين وذات الشمال، بعد أن كان برعما في فنن الوجود يبشر بالإثمار والإيناع . وكما قال نعمة قازان المغترب في البرازيل:

هي النفس تحيا بإحساسها
وليس على الحس من قدرة
ربيت طليقا على فطرتي
وما أحيلى طفـولتي!

ويستثنى من شعراء المهجر هذا الشاعر الذي تجد في شعره قلقا في التعبير ولغة شعرية ساذجة وأخيلة مبتذلة إلا في القليل النادر. وإذ يتأمل الأديب المهجري من موقعه الجديد في واقع عالمه العربي المتردي في دركات الجهالة، المتخبط في غياهب الاستبداد، يحزنه غياب الحرية فتراه يثور في أدبه محولا شعره أونثره إلى شواظ من جمر ولهيب من نار عسى أن ينتفض الشعب في سبيل نيل حريته واقرأ هذين البيتين للشاعر السوري نسيب عريضة المغترب في أمريكا يخاطب وطنه:

مشت القرون وكل شعب قد مشى
معا وقومك واقفون ونوم !
لم ترتفع كف لصفعة غاشم
فيهم ولم ينطق بتهديد فم

واقرأ الشاعر القروي تلقه نفسا ثائرة وضميرا معذبا وعقلا حرنا على شيء واحد هو الحرية

أنت حر فاستوطن البلد الحر
وصاحب من أهله إخـوانا
مثلك الكون والزمان فلا تلح
مـكانا ولا تسب زمانا
ليس في قضمك الحديد هوان
إن في بثك الشكاة هوانـا

ويلفت نظرنا الشاعر الدمشقي جورج صيدح المقيم في الأرجنتين إلى مفهوم أوسع للحرية يتجاوز المفهوم المألوف الساذج يقول صيدح:

غير أني عشت عمري في الشذا
فعرفت الفرق مـابين الورود
إنما الشعر انطلاق للذرى
واندفـاق نحو أغوار وبيد
إنه البحر الذي أمـواجه
تتتـالى حـرة ضمن الحدود
وهذه حرية الإبداع والتصور والفكر والشعور ! ولا يمكننا أن نغفل شاعرا كبيرا ونعني الدكتور أحمد زكي أبا شادي

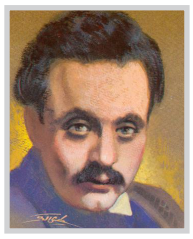

تعتبر قصيدة " المواكب" لجبران إنجيل الثورة ضد تردي القيم وميوعة الإنسان وتحلل القيم ونشاز النفس الإنسانية فيصير الاستغلال قيمة والظلم مبدأ انسانيا يقول جبران :
والعدل في الأرض يبكي الجن لوسمعوا
به ويستضحك الأموات لو نظروا
فالسجن والموت للجانين إن صغروا
والمجد والفخر والإثراء إن كبروا
فسارق الزهر مذموم ومحتـقر
وسارق الحقل يدعى الباسل الخطر
وأما الحرية تلك الحورية التي لهج بذكرها الشعراء وضحى في سبيلها الأعيان والعلماء والتي هي الغاية والمبتغى من الوجود الإنساني والتي يؤدي غيابها إلى عبثية الوجود بل عدميته، وهل الإنسان إلا ذلك الكائن الذي يتميز عن غيره من الموجودات بالنزوع إلى الحرية والوعي بها؟، فهي قيمة انسانية تستحق أن يضحي لأجلها الإنسان،

فما كانت هجرته إلى أمريكا إلا رحلة بحث عن الحرية في وطن جديد اتخذ للحرية تمثالا ضخما في مرفأ مدينة نيويورك:

لجـأت إليك يا وطنا تغنى
به الأحرار واعتز النشيد
فإنك منبري الحر المرجى
وبدء نهاري بل عمر جديد

كما يعتذر إيليا أبو ماضي لوطنه لبنان حين هجره لا ملالة بل بحثا عن الحرية وهروبا من الفساد والقمع:

لبنـان لا تعذل بنيك إذا هم
ركبوا إلى العلياء كل سـفين
لم يهـجروك مـلالة لـكنهم
خلقوا لصيد اللؤلؤ المكنـون
لما ولـدتهم نسـورا حلقوا
لا يقنعون من العلا بالدون

و لا ننسى جبران فهو كعادته يتجاوز في فهمه و إدراكه لحقائق الوجود المألوف والعادي فهو زلزال يهدم يقينيات القارئ و إعصار يجتث جذور المعاني الهرمة في عقولنا ونفوسنا ولعله يبالغ أحيانا إلى درجة بث الفوضى العقلية والحياتية حين يحمل معول الهدم منقضا على البنى الاجتماعية والتاريخية غير عابئ بالمعطيات الأنثروبولوجية والسوسيولوجية والتي لا شك يجهل الكثير منها غير أن غيرته على الشرف الانساني واستماتته في الدفاع عن حرية الانسان المغيبة أحقابا هي ما يشفع له تطرفه يقول جبران بعقل فلسفي ثاقب ونفس بحاثة شكاكة: " إن بلية الأبناء في هبات الآباء ومن لا يحرم نفسه من عطايا آبائه و أجداده يظل عبد الأموات حتى يصير من الأموات " . ويقول أيضا : " أنت تنظر بعين الوهم فترى الناس يرتعشون أمام عاصفة الحياة فتظنهم أحياء وهم أموات منذ الولادة ، ولكنهم لم يجدوا من يدفنهم فظلوا منطرحين فوق الثرى ورائحة النتن تنبعث منهم " . ونختم هذا المقال بذكر قيمة إنسانية أخرى حوم حولها الأدب المهجري وما كان له أن يغفلها وهو الأدب الباحث عن دروب الحرية والكادح في سبيل كمال الإنسان ونعني بها نزعة التأمل تلك النزعة التي تنتهي بصاحبها إلى رمي القشور والاكتفاء باللباب و لاتقنع بالألفاظ وأكثرها براق ورصيدها من الحقيقة الإنسانية قليل ، وقد حوم الأدب المهجري حول مفهوم السعادة ونسبيتها وركز على ما هو جوهري في الوجود الإنساني وما الرفاه المادي إلا وسيلة يفترض فيها أن تزيد من سعادة الإنسانية ككل لا أن تتحول إلى غاية و امتياز للبعض دون الآخر ومظهر من مظاهر الطبقية و الاستغلال .إذا فقد حوم الأدب المهجري حول هذه المعاني و امتد تحويمه إلى الميتافيزيقا ووقف أمام الموت وقفة الخاشع لمواجهة هذا المصير الحتمي لا على أنه عدمية بل رحلة إلى عالم آخر وليس شرطا أن تكون هذه الرحلة متفقة مع المفاهيم الدينية بل بعضها مستمد من الفلسفة الإشراقية و الهندية وكالقول بوحدة الوجود والفيض وتناسخ الأرواح وكلها بهدف تفسير الوجود الإنساني والموت وبث السكينة في النفس الإنسانية الحائرة المعذبة القلقة من مواجهة الموت، وقد قال إيليا أبو ماضي متعمدا الإحالة العلمية و الفنية :

إن الحياة قصيدة أعمـارنا
أبياتها والموت فيها القافيـه
متع لحاظك في النجوم وحسنها
فلسوف تمضي و الكواكب باقيه

وهي دعوة إنسانية إلى الاستمتاع ببهاء الكون والإندغام في مظاهر الوجود وتذوق حلاوة الحياة تناسيا للموت والعدمية ، غير أن جورج صوايا المغترب في الأرجنتين تراه في تأمله الإنساني يذهب مذهب أبي العلاء ويتفلسف على شاكلته ناصحا إيانا بنشدان الراحة في الهجوع الأبدي مادامت الدنيا دار أوصاب و مظاهر خادعة وسراب مضلل وفناء حتمي :

أيها الواجف من طيف الممات
ينشد الغبطة في طول البقاء
ليس لولا الموت في الكون حياة
فتوجه صامتا نحو السكون !
أيها الهاجع في الوادي الظليل
حاضرا كالحلم في فكر الدهور
بدد الحلم انقضى الليل الطويل
فمتى اليقظة من هذا الهجوع
يذوي المرء ويذبل كالزهور
هل ترى ينعشه ظل الدموع ؟

وندرة حداد الحمصي المغترب في أمريكا ينتهي في تأملاته الإنسانية إلى القرار بالحياة الاضطرارية وهاهو ينصحنا بالعيش لأنه لا خيار إلا ذلك متحملين أخف الأضرار :

كم تمنينا صغـارا
أن نرى يوما كبارا
ثم صرنا نتمـنى
اليوم لوعدنا صغارا
هي دنيا كيفمـا دا
رت عليها المرء دارا
وكما سن لنا نحيـا
ولم نعط الخيـارا

واقرأ هذه التأملات الشعرية وما تنطوي عليه من معاني إنسانية تبحث عن الحرية الكاملة ونبالة الحس ستجزم أنها ثمرة فكر وقاد و بصيرة ثاقبة وسوف يأخذك العجب لو علمت أنها لشاب مات يافعا في حدود الثلاثين من عمره و أظنك تعرفه هو فوزي المعلوف :

بين روحي و بين جسمي الأسير
كان بعد نقت مره
أنا في التراب وهي فوق الأثير
أنا عبد وهي حـرة
عبد عصر من التمدن نلهـو
ظلة عن لبابه بقشوره
عبد مالي أسعى إليه فأحظى
بعد طول العنا بوطأة نيرة
عبد اسمي أذيب نفسي وجسمي
طمعا في خلوده وظهوره
عبد حبي جعلت قلبي مـأوا
ه فأضرمت أضلعي بسعيره

و اقرأ إيليا أبا ماضي ثانية تراه ينصحنا بالحياة والاستمتاع بها ولو في أخلق الأسمال ، ذلك أن السعادة ليست في القصور والرياش ، بل إنها شعور نفسي غامر يفيض من القلب على المحيا مشعا إشعاعا نورانيا :

أيها الشاكي الليالـي إنما الغبطة فكـره
ربما استوطنت الكـوخ وما في الكوخ كسـره
وخلت منها القصـور
العاليات المشمخـره
تلمس الغصن المعـرى
فإذا في الغصن نضـره
و إذا رفت على القفـر استوى ماء وخضـره
وإذا مست حصـاة صقلتـها فهي دره

وما أروع قول القروي على لسان الطبيعة – وقد انتهى في تأملاته الإنسانية إلى أن الإنسان الحقيقي لم يولد بعد- وكأن رحم الغيب مازالت تحتبل به مؤجلة ميلاده إلى أمد مازال بعيدا حتى تكدح الإنسانية وتجاهد في سبيل الحق و الخير و العدل فحينها تستولده من تلك الرحم يقول القروي : مررت بأترابي التاجريـن
فلم ألق إلا العبوس الوقورا
فملت إلى الحقل حيث الصغار
تناغي الطيور وتجني الزهورا
فهل صار كل رفاقي كهولا
وهل أنا وحدي ظللت صغيرا؟
فأسمعني الطير عند الصباح
جواب الطبيعة لي تنشـد
بني ولدتك طـلا جديدا
فقل للرفاق الألى تعـهد
لقد ملأ الأرض أولادكم
و أنتم إلى الآن لم تولـدوا

عن كتاب ساعات مع الكتب

جبران خليل جبران والطبيعة

كيف استطاع صبيّ ولد في ١٨٨٣ من عائلة مسيحية مارونية متواضعة في قرية جبلية في شمال لبنان أن يصبح كاتبًا ومفكرًا وشاعرًا ورسّامًا لبنانيًّا موهوبًا ترجمت كتاباته في أنحاء العالم كافة ونالت رسومه إعجاب النقاد في أهم العواصم؟
بصفتي عالمة بالجغرافيا، أنا أهتم بكيفية تفاعل الإنسان مع الحي والقرية والمدينة والمحيط والطبيعة التي يعيش فيها ... وبرصد العناصر والسمات التي ستسمح له بتقديم تصورات حول محيطه تتخطى إدراكه لمحيطه الواقعي عبر الاستعانة بذكريات ومساحات خيالية مفعمة بالوجدان. إنّ تشعب هذه التصورات الفكرية وقراءتها يدخلاننا في عالم "المعنى" بكل قيمه ورموزه.
من خلال تحليل المحطات الرئيسة في حياة جبران، تسعى مقاربتنا المبنية على الجغرافيا الإدراكية إلى تحسين فهمنا للتصورات الوجدانية والروحانية والفكرية التي تشكل حبكة أعمال جبران خليل جبران.

الطبيعة، القرية

في الشرق الأوسط الصحراوي بنسبة ٨٥٪، لطالما برز لبنان كحالة استثنائية، وهو "بلد الحليب والعسل" بجباله الشامخة وقممها المكسوة بالثلوج والينابيع المتدفقة على سفوحها وثروته النباتية الوافرة التي يشكل الأرز رمزًا لها ...

ألهب لبنان على مر العصور مخيلة الشعراء والأدباء وكان محط الأطماع وقبلة الغزاة وجنة المستشرقين. لا تزال كتب التاريخ والجغرافيا في سائر الدول العربية تصفه بالبلد المبارك من الطبيعة. ويمجّد لبنان بتاريخه المجيد وغابات أرزه الجليلة وقراه المتميزة بالقرميد الأحمر المتناثرة على سفوح الجبال وبساتينه المشهورة أشجار الفاكهة والزيتون وزراعة البقول ...

إطار طبيعي جليل

وُلد جبران في بشري، وهو بلدة جبلية تقع على ارتفاع ١٥٠٠ م، على كتف منحدرَين خصبَين ووعرَين في آنٍ معًا. تفصل البلدة التي يصفها الأديب الفرنسي ألفونس دو لامارتين في كتابه "رحلة إلى الشرق" (Voyage en Orient) (١٨٣٢-١٨٣٣)، بضع كيلومترات فقط عن غابة الأرز، وهي – بحسب لامارتين – "أشهر المعالم الطبيعية في الكون".

أقتبس: "قرية بشري التي تكاد بيوتها تتماهى والصخور التي نحتتها السيول ... يصل المرء إليها عبر ممرات منحوتة بالصخر ووعرة لدرجة يكاد المرء لا يصدق كيف أن البشر يتجرأون على سلوكها ..." تشرف بشري على وادي قاديشا المقدس، علمًا بأنّ قاديشا لفظة سريانية تعني "المقدس". لطالما شكل هذا الوادي ملجأً لعدد من النساك والأديرة، وهو اليوم مدرج على لائحة التراث العالمي. ويمكن للمارة على الطريق أن يروا قبب الأجراس والأديرة والمحابس المتعددة المحفورة في الصخر والمشرفة على النهر.

يتذكر جبران: "يتخذ الوادي شكل مبخرة استبدل بخورها بالضباب. والقرى المتناثرة على جوانبها على شكل مسبحة، وبشري الحبة الوسطية منها."

في هذه المنطقة "المباركة من الآلهة" حيث تزخر الطبيعة المدهشة بالرموز الدينية والروحانية، ترعرع جبران، مكتشفًا الثروات الطبيعية والبشرية في محيطه الذي شكّل مرتعًا مميزًا للتعلم واللعب له ولأخيه وأخواته.

لن تنسى أذناه هدير الشلال وخرير السبيل وأنشودة الناي العذبة، كما تقول الأغنية: " أعطني الناي وغنّي، فالغنى سر الخلود وأنين الناي يبقى بعد أن يفنى الوجود وهناك أمضى جبران طفولة سعيدة.

الإطار العائلي والاجتماعي

خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر، كانت السلطنة العثمانية تسيطر على لبنان والمنطقة منذ قرابة أربعمئة عام.

كان والد جبران، خليل سعد جبران، جابيًا للضرائب لصالح الإدارة العثمانية. وقد كان صارمًا وسريع الغضب، وغالبًا ما يهاجم أولاده وزوجته كاملة رحمه، وهي أرملة أنجبت أربعة أولاد، أحدهم من زواجها الأول. كانت كاملة تضطلع بالدور الأهم في الأسرة وقد سعت لتوفير تربية جيدة لأولادها من المدرسة إلى الموسيقى والرسم والتعليم الديني وغيره.

عندما كان والداه يتشاجران، غالبًا ما كان جبران يحتمي بالمغائر ليحلم أو يبدي إعجابه بالطبيعة الخلابة وينغمس في أصواتها وروائحها وألوانها ...

في هذا المجتمع القروي المحافظ حيث يمضي الزمن على وقع المدرسة وقداديس الآحاد وتقلب الفصول والاحتفالات الدينية، تميّز جبران عن أترابه بفضل موهبته الفنية وخياله الخصب.

اهتزّ أمان العائلة التي كانت والدة جبران تسهر عليها بحكمة وعطف عندما دخل والده السجن إثر اتهامه بالاختلاس الضريبي ووضع السلطات العثمانية يدها على ممتلكاته كافة في العام ١٨٩١. كان جبران يبلغ حينها التاسعة من العمر وكانت حياته تدخل في المجهول.

. المراهقة والهجرة

في العام ١٨٩٥، قررت كاملة أن تحذو حذو الآلاف من العائلات اللبنانية وتهاجر إلى الولايات المتحدة مع أولادها، تاركة وراءها والدهم المتردد.

هكذا، "اقتلعت" كاملة التي كانت الركن الأساس في العائلة، ابنها جبران من القرية والجبل والوادي المقدس، وكلها أماكن مفعمة بالوجدان بالنسبة إليه ... فجأةً، وبعد رحلة طويلة، انتقل من قرية هادئة ومنعزلة إلى مدينة مكتظة بالسكان ومليئة بالضجيج، من طبيعة مليئة بالخضار إلى غابة من المباني، ومن مدرسة القرية حيث يعرف التلاميذ بعضهم بعضًا منذ نعومة أظافرهم وحيث يتخاطبون بالعربية إلى مدرسة رسمية في حي بائس يرتادها عرب ويهود وصينيون وآخرون من أوروبا الشرقية. وقد كانت هذه المدرسة أشبه ببرج بابل حيث تعيّن على الجميع تعلم لغة جديدة، ألا وهي الإنكليزية، وحيث فقد جبران حتى اسمه الذي استبدلته معلمته باسم والده خليل، فبات يدعى خليل جبران.

تأثر جبران بهذا الانغماس بالعنصرية والاختلاط الذي يميّز الأحياء الشعبية والفقر، وقد كان يمرّ في ذلك الحين بأزمة البلوغ في تلك المرحلة الدقيقة التي تميز الانتقال من الطفولة إلى المراهقة. ويمكن استشراف الشدة التي كان يختبرها في كتابه الأول باللغة الإنكليزية بعنوان "المجنون" (The Madman)، حيث قال:

"أنا، الفوضى البشرية وسديم العناصر المشوشة، أهيم بين العوالم ..." (١٩١٨)

تجسد هذه العبارات فقدان جبران لنقاط استدلاله كافة على صعيد المكان والحواس والوجدان، إضافة إلى فقدانه والده الذي يمثل بالنسبة لطفل في الثانية عشرة من العمر قطب تكنّه لا يمكن استبداله.

صقلت الهجرة ونمّت وأثرت في طبع جبران المراهق ومخيلته، فبدأ حينئذ تيهان الروح والقلب ... واستمرت حياته متأثرة بفقدان ما كان يحبه:

– فقدان العائلة
– فقدان المثال الأبوي (السجن، الهجر، الخ.)
– فقدان الجنة الضائعة

أدى تكاثر المصادفات والعلاقات إلى الدفع بهذا المراهق ذي الوجه المدلهم والبشرة السمراء، وهو لا يزال في الرابعة عشر من العمر، في خضم مجتمع أميركي اجتماعي متذوق الجمال ومنحط ومليءٍ بالنساء الثريات اللواتي كنّ يكبرنه سنًا ويتسابقن لمعاملته بروح الأمومة. عندها، اكتشف قلبه الشرقي المحافظ التحرر وجسد المرأة الغربية المغري.

هل سيؤدي هذا الاختلاط بمجتمع بوسطن المرموق بتسريع عملية التثاقف عند جبران ويسمح له "بإعادة بناء نفسه؟"

ليس بالضرورة، فوالدته كاملة صعقت لدى معاينتها هذا المجتمع المنحط. ولكي يتمكن ابنها الموهوب من التعمق في دراسته وفي إلمامه باللغة العربية وآدابها، أقدمت على إرساله إلى لبنان (١٨٩٨).

العودة إلى الجذور

كتب جبران حينها ما يلي:

"كنت في حلم ... كانت والدتي وأخي وأختاي يقفون خلفي في بوسطن وأمامي، من بعيد، يقف والدي على جبل لبنان، القريب من الأرز. وأنا ... كنت أعرف أنني لن أكون من أريد أن أكون إن لم أعد إلى بلدي."

سرعان ما ستحل الخيبة محل هذا الحماس إذ، وبعد اكتشاف الغرب والقارة الأميركية، كانت نظرة جبران إلى لبنان جديدة ومجرّبة. كان جبران طالبًا داخليًّا في إحدى مدارس بيروت وكان يمضي فصل الصيف في بشري. لكن الذكريات السعيدة ستصطدم بواقع مرير، فقد أصبح والده سكيرًا قاسيًا ومتعجرفًا. وكانت القرى الجبلية الرازحة تحت ثقل الضرائب تعيش حالة ركود نظرًا لهجرة اليد العاملة، تاركة وراءها النساء والشيوخ. هذا الكم من البؤس والظلم في "بلده" حرك في جبران شعورًا بالثورة، إلاّ أنه دفعه أيضًا إلى إدراك عمق الهوة التي تفصل بين الشرق والغرب.

كان جبران يحب العزلة ويفضل استظلال الأرز أو الاتكاء إلى جدران دير مار سركيس العتيق المحفور في الصخر ليستغرق في التأمل ورسم المنظر الطبيعي المنبسط أمامه.

كتب جبران على متن الباخرة خلال رحلة العودة إلى الولايات المتحدة في ١٩١٢:

"لن تعود أنغام لبنان إلى مسمعي إلاّ في الحلم ..."، وكأنه كان يدرك منذ ذلك الحين أنه لن يرى بلده مجددًا.

الذاكرة والتصورات

عانى جبران جراء الهجرة والقلق الشديد والحزن، وناضل طوال حياته في سبيل

سرعان ما ستحل الخيبة محل هذا الحماس إذ، وبعد اكتشاف الغرب والقارة الأميركية، كانت نظرة جبران إلى لبنان جديدة ومجرّبة. كان جبران طالبًا داخليًّا في إحدى مدارس بيروت وكان يمضي فصل الصيف في بشري. لكن الذكريات السعيدة ستصطدم بواقع مرير، فقد أصبح والده سكيرًا قاسيًا ومتعجرفًا. وكانت القرى الجبلية الرازحة تحت ثقل الضرائب تعيش حالة ركود نظرًا لهجرة اليد العاملة، تاركة وراءها النساء والشيوخ.

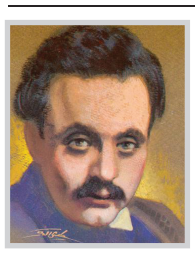

رائية جبران في حديقة النبي

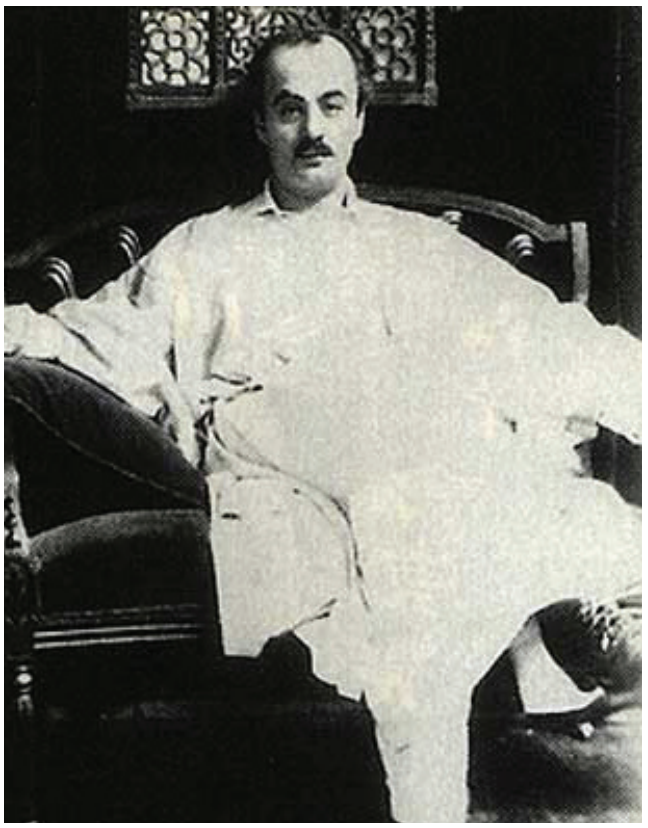

نصرت مردان

استطاعت أعمال جبران خليل جبران أن تصمد في وجه الزمن، وتنجح في امتحانه.. ذلك أن دور النشر ماتزال تتسابق علي إعادة إصدارها بالرغم مرور أكثر من سبعين عاما على وفاة مبدعها بالإضافة إلى ذلك فإن أعمال جبران لم تتجاوز حدود الزمن فحسب بل تجاوزت حدود المكان أيضاً. فهي اليوم مقروءة في جميع بقاع الأرض بعد أن تمت ترجمتها إلي معظم لغات العالم. فأدبه رومانسي وواقعي وصوفي وثوري وحداثي في الوقت نفسه، وهو مايمنح سر النكهة الخاصة التي تمنح أعمال جبران فرادتها وخصوصيتها لأنه يرسم و يفلسف الأمور فيها بروح مشرقية أصيلة لا غبار عليها، سوى غبار المزج بين ثقافات متعددة وعجنها ثم خبزها علي نار الطموح إلى مجتمع أفضل وحياة أرقى وعلاقات بين البشر تسودها السعادة المطلقة، التي لم يتمتع بها جبران نفسه.

ولد هذا الفيلسوف والأديب والشاعر والرسام من أسرة صغيرة فقيرة في بلدة بشري بلبنان في ٦ كانون الثاني ١٨٨٣ وتوفي في ١٠ نيسان ١٩٣١ في إحدى مستشفيات نيويورك وهو في الثامنة والأربعين بعد أصابته بمرض السرطان.

إذا كان الأدب العظيم هو الذي يتجاوز عصره الذي كتب فيه، ويبقي قادراً علي بث المتعة الأدبية وجذب جمهور القراء، بعد انقضاء الشروط الزمانية والمكانية التي كانت تحكم ظروف إنتاجه،فان أدب جبران استطاع أن يحقق هذه المعادلة لأنه مزيج من العناصر الرومانسية والواقعية والصوفية والثورية والحداثية، التي استطاع أن يؤلف بينها في توليفة سحرية، لا تأتي إلا لمبدع كبير حقا في وزن جبران خليل جبران. من منا لا يضع توقيعه هذا اليوم على ماقاله جبران قبل ٧٥ عاما :

ويل لأمة تكثر فيها الطوائف وتخلو من الدين
ويل لأمة تلبس مما لا تنسج، وتأكل مما لا تزرع، وتشرب مما لا تعصر
ويل لأمة تحسب المستبد بطلا"، وترى الفاتح المذل رحيما"
ويل لأمة تكره الشهوة في أحلامها وتعنو لها في يقظتها
ويل لأمة لا ترفع صوتها الا إذا مشت بجنازة، ولا تفخر الا بالخراب
ولا تثور الا وعنقها بين السيف والنطع
ويل لأمة سائسها ثعلب، وفيلسوفها مشعوذ، وفنها فن الترقيع والتقليد
ويل لأمة تستقبل حاكمها بالتطبيل وتودعه بالصفير،
لتستقبل آخر بالتطبيل والتزمير
ويل لأمة حكماؤها خرس من وقر السنين ورجالها الأشداء في اقمطة السرير
ويل لأمة مقسمة إلى أجزاء وكل جزء يحسب نفسه أمة.

جبران خليل جبران عن كتاب(حديقة النبي) ١٩٣٣

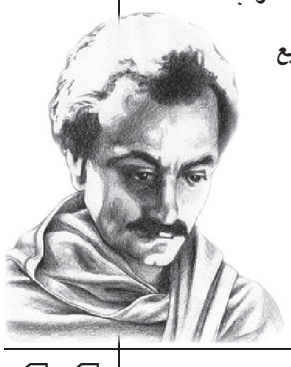

الحرية والعدالة. لطالما كان ثوريًا يرفض الطغيان بأشكاله كافة، سواء كان أدبيًا أو اجماعيًا أو دينيًا. وكان ينادي بنهضة اللغة العربية وآدابها لتشمل المواضيع الثقافية والاجتماعية والسياسية وحتى الدينية بهدف تحقيق تحرر الإنسلن على الصعيد العالمي.

وإذ كان جبران مقتنعًا بالرسالة الإنسانية والروحية لبلاد الأرز، كان في المقابل يشجب خضوع مواطنيه ونفاقهم، ويستنكر قبولهم بالواقع. ففي مقاله بعنوان "لكم لبنانكم ولي لبناني"، انتقد السياسيين لتشويههم لبنان عبر التهليل للانتداب الفرنسي (مقال صدر في صحيفة "الهلال" المصرية، ٨ تشرين الثاني ١٩٢٠).

ذاكرة الكاتب وتصوراته

يقول الفيلسوف موريس هالبفاكس (Maurice Halbwachs) عن ذاكرة الطفل: "... تغوص حياة الطفل إلى أبعد مما نتصور في مجالات اجتماعية يتصل من خلالها بماض معيّن ... حيث تقبع ذكرياته ... إطار حي وطبيعي يمكن أن تستند إليه فكرة ما للحفاظ على صورة ماضيه واستعادتها." (١٩٦٨)

القاهرة، بوسطن، باريس أو نيويورك: لم تتمكن أي من هذه المدن من أن تدفعه إلى نسيان البلد الذي أحبه للغاية. رواياته وكتبه وقصائده كلها تتعلق بالطبيعة، وهي – بالنسبة لجبران – تتمتع بحياة خاصة بها ذات أبعاد روحية وعاطفية وفكرية. فمن قلب طبيعة جبل لبنان الشامخة وقريته وذكريات طفولته وُلدت القناعات التي امتزجت برؤى الكاتب وخياله الخلاق. كانت تحدوه دومًا رغبة جامحة بالعودة إلى حياة بسيطة مرتبطة بحياة الجبل اللبنانية الريفية. نجد في كتبه وقصصه عناصر من طفولته السعيدة، كالقمح والكرمة ونسيم الصباح والجداول وحلول الليل، الخ.

يعيش جبران في إحدى قصائده ألم الابتعاد عن الجذور عبر تخيل حوار يدور بينه، وهو يعيش في نيويورك، وحبيبته التي بقيت في لبنان. فيصف سماء المدينة الأميركية المثقلة بالظلمة والدخان في حين تصف له ساعات الصباح في القرية وأجراس الكنائس وقطعان الخراف والماعز المتجهة إلى المراعي ...

في كتابه بعنوان "الذاكرة الجماعية"، يقول هالبفاكس: "... الذكريات هي، في جزء كبير منها، إعادة بناء للماضي من خلال معطيات اقتبست من الحاضر." (١٩٦٨)

بالنسبة لجبران، بشري هي الجنة الضائعة المتجلية في الذكريات ومالتسامية بالحنين، هذا المكان الفريد من نوعه وهو قبلة طموحاته كافة ورغبة

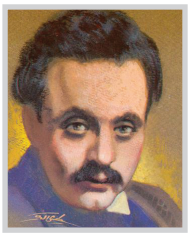

أسلوبه الفني لافت، فهو يرسم كما يكتب، يرسم بالكلمات.
زاول جبران مهنتي الكتابة والرسم جنبًا إلى جنب ولم يفصل بينهما قط. وقد قال: "أمضي حياتي في الكتابة والرسم واللذة التي يمنحني إياها هذان النوعان من الفن هي فوق أي لذة أخرى." بالفعل، لا يمكن الحكم على رسوم جبران بمنأى عن فكره وأعماله المكتوبة.
يتداخل العالمان الصوري والأدبي ويتماهيان. رسومه هي تعبير دقيق عن أفكاره، وهي تجسد مخاوفه ماورائية وتنضوي على رسالة مفادها إيقاظ روح الجنس البشري المجردة (المادية) وإعادتها للطبيعة.

العودة لديه:

"لهذا السبب، أنا غريب وسأبقى غريبًا إلى أن تحملني أجنحة الموت البيضاء الأخوية وتعيدني إلى بلدي الجميل."

ذاكرة الرسام وتصوراته

أسلوبه الفني لافت، فهو يرسم كما يكتب، يرسم بالكلمات.

زاول جبران مهنتي الكتابة والرسم جنبًا إلى جنب ولم يفصل بينهما قط. وقد قال: "أمضي حياتي في الكتابة والرسم واللذة التي يمنحني إياها هذان النوعان من الفن هي فوق أي لذة أخرى." بالفعل، لا يمكن الحكم على رسوم جبران بمنأى عن فكره وأعماله المكتوبة.

يتداخل العالمان الصوري والأدبي ويتماهيان. رسومه هي تعبير دقيق عن أفكاره، وهي تجسد مخاوفه ماورائية وتنضوي على رسالة مفادها إيقاظ روح الجنس البشري المجردة (المادية) وإعادتها للطبيعة.

لم يتأثر جبران بالميول الفنية الرائجة في زمانه من التكعيبية إلى السريالية، لكنه في المقابل تأثر أشد تأثير بالرمزية التعبيرية التي تميز بها وليام بلايك. لكن، وحيث كان هذا الأخير يقول: "حيث لا يكون الإنسان، تكون الطبيعة عقيمة"، كانت الطبيعة بالنسبة لجبران بوابة اللانهاية حيث تتجلى وتتحقق مثولية ما هو إلهي.

اهتم جبران بالبشر، فلم يصور سوى شخصيات، واقعية أو خيالية، مبديًا ميلاً للعرية المتلازمة وخلفية تشبه مشاهد طفولته (سماء زرقاء أو داكنة، جبال شاهقة وناتئة، وديان شديدة الانحدار ... وكأنها حديقة من بدايات العالم).

يمتد بناء اللوحة ليشمل عالم الطبيعة وعالم البشر، ويمكن تلمس العلاقة بين ارتقاء الطبيعة وتجاوز الإنسان مع المرور من وجوده الظاهري إلى كيانه الداخلي.

تصور لوحاته أشخاصًا مجهولي الجنس في وضعيات تأملية، وهم منكمشون على أنفسهم أو متعانقون أو مصلوبون ...

تنمّ أعماله عن حزن شديد على الرغم من أن الأمل ليس غريبًا عنها تمامًا. يفسر جبران ذلك في مقطع من "الأجنحة المتكسرة" حيث يقول: "حياة من لم تخلقه الكآبة ومن لم يخبر تناقضات اليأس ... تبقى كورقة بيضاء في كتاب الوجود."

عاش جبران معظم أيام حياته بين ناطحات سحاب نيويورك، وهو يحلم بالناي ووادي قاديشا وأرز لبنان ...

هذا الحنين إلى لبنان والشعور العميق بالعودة إلى الطبيعة ليس سوى مرآة عميقة تعكس الرغبة في العودة إلى الذات. كما رأينا، شكل جمال الطبيعة المحيطة بقريته بشري مصدر إلهام غذى خياله وتصوفه. ترمز ذكريات الطفولة السعيدة إلى الحرية والسلام والعودة إلى نقاء الروح والعذرية ونضارة الكيان.

بقي جبران متجذرًا جغرافيًا في مكان لم يعرف أي تغيير على مر الزمن وفي ذاكرته، مكان لم تخدش المادية صورته أو توسخها. فتحولت بشري ووادي قاديشا إلى مكان للتأمل بشأن الحقيقة والموت والإنسان والطبيعة والله ...

"الحب الذي أكنّه للمكان الذي ولدت فيه هو جزء من الحب الذي أكنه لبلدي، وحبي لبلدي هو جزء من حبي لوطني. أحب الأرض كلها لأنها ملاذ البشرية وروح الله على الأرض

ملف بمناسبة ٥٠ عاما على رحيل جبران عن مجلة افاق عربية ١٩٨١."

نشرت ١٩٩٢ مقالة تحت عنوان (رسالة عمرها ٦٨ عاما تفصح عن غرام مي بجبران خليل جبران، تناول فيها الكاتب غرام مي بجبران وذلك لمناسبة الذكرى السنوية لوفاتها في ١٩٤١/١٠/١٩ ونشر رسالة كانت مي قد ارسلتها لجبران عام ١٩٢٤ ، لكن لم يذكر السيد الكاتب، ما اذا كانت الرسالة قد نشرت في كتاب ما، بل ذكر انها (وجدت بين المخلفات) ولم يذكر ماهية هذه المخلفات ، وهل هو الذي عثر عليها واين؟ اذ ان العبارة توحي انه هو الذي عثر على رسالة الحب هذه بين المخلفات!!

عن حب مي زيادة

لجبران خليل جبران

شكيب كاظم

الذي اريد ان اقوله ان الرسالة هذهن اضافة الى رسائل مي الى جبران خليل جبران وغيره، مثل: احمد لطفي السيد والدكتور يعقوب صروف صاحب (المقتطف) وامين الريحاني وانطون الجميل وملك حفني ناصف الملقبة بـ ٠باحثة البادية) وجوليا طعمة دمشقية وغيرهم قد نشرت عام ١٩٥١ ، في كتاب يحمل اسم (رسالة مي، صفحات وعبرات من أدب مي الخالد) وهومن منشورات مكتبة بيروت، وقد اهتم بنشر هذه الرسائل الاستاذ جميل جبر (الدكتور فيما بعد) ومن الجدير بالذكر ان جميلا هذا اصدر عام ١٩٥٣كتابا يحمل عنوان: (مي في حياتها المضطربة) صدر عن دار بيروت، وهناك مثل الدكتور جميل جبر الكثير، فهو اذ قصر جهده على ادب مي وحياتها ، فلدينا الاديب التونسي (ابو القاسم محمد كرو) الذي اوقف جهده على دراسة ادب الشابي وحياته، فأصدر كتباً عنه منها: الشابي ، حياته وشعره) و"كفاح الشابي) و(الشابي وصداه في الشرق) وعامر العقاد، الذي اختص بأدب الكاتب الكبير المرحوم عباس محمود العقاد ونشر تراثه عبر المطبوع والمرحوم مصطفى علي، في الرصافي ، حتى استحق بجدارة لقب (رواية الرصافي).

الرسالة – كذلك- نشرها الكاتب المصري فتحي رضوات في كتابه الممتع (عصر ورجال)الصادر عام ١٩٦٧ والذي درس فيه الاستاذ فتحي رضوان وابراهيم عبد القادر المازني، وعباس محمود العقاد وسلامة موسى وعلي الغاياتي الحميد الدين ويقع الكتاب في اثنين وسيعين وستمئة صفحة.

لقد ذكر السيد محمد علي الكاتب – كذلك- بيتين من قصيدة نظمها الشاعر اسماعيل صبري:

"روحي على بعض دور الحي هائمة – كظامئ الطير توق الى الماء ان لم امتع بمي ناظري غدا- انكرت صبحك يا يوم الثلاثاء ، فهناك الى جانب هذا الشاعر المتوفي عام ١٩٥٣، شاعر مصري اخر يحمل الاسم نفسه، (اسماعيل صبري)

ولد عام ١٨٥٤ وتوفي عام ١٩٢٣ ، ولقد تحدث عنه الدكتور محمد الكتاني في الجزء الاول من كتابه: (الصراع بين القديم والجديد في الادب العربي الحديث) والذي يقع في اربع واربعين وخمس مئة صفحة، قائلاً "ممن عاصر البارودي محمود سامي) واشترك معه في حركة البعث الشعري بنصيب يقل او يكثر حفني ناصيف واسماعيل صبري وصالح مجدي وعائشة التيمورية ، ومن الحق ان نعتبر اسماعيل صبري (١٨٥٤ -١٩٢٣) ممثلا للبعد الثاني لظاهرة انبعاث الشعر، بعد البعد الادبي الاول مثله البارودي، هذا الى الجزالة وفخامة البناء وذاك الى الرقة والعذوبة وحسن التأنق، لقد كان اسماعيل صبري من اوائل الشعراء المصريين الذين اتيح لهم ان يطلعوا على الثقافة الاوروبية والقيمة التي نراها لهذا الشاعر في سياق حركة الانبعاث انه اسهم في رد الشعر الى مصادره النفسية من حيث هو تعبير عن النفس في اشجانها واحزانها وخواطرها فهو لم يكن ينتظم الشعر حين يخلو الى نفسه، الا متى عرض له معنى من المعاني، او خاطرة من الخواطر ، ولهذا كان شاعراً مقلاً، وقصارى القول في اسماعيل صبري انه كان يجري مع البارودي في اتجاه واحد من حيث تحرير الشعر من التصنيع البديعي، والعودة الى التعبير عن مشاعر النفس وفي رواء من الاسلوب لم يتخ لكثير من معاصريه..).

كما تحدث عن الشاعر اسماعيل صبري باشا المرحوم احمد حسن الزيات ، صاحب مجلة (الرسالة) ذائعة الصيت في كتابه الموسوعي (تاريخ الادب العربي) ص ٤٥٣ -٤٥٧ ، الطبعة السابعة (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩.

ويسرني ان انقل للقراء هذه الابيات الرقيقة من شعر اسماعيل صبري:

ابثك ما بي فان ترجمي
رحمت اخا لوعة ذاب حبا
واشكو النوي ما امر النوى
على هاشم ان دعا الشوق لبا
واخشى عليك هبوب النسيم
وان هو من جانب الروض
ها تعالي نجدد زمان الهنا
وننهب لياليه الغر نهبا
تعالي اذق بك طعم السلام
وحسبي وحسبك ما كان حربا.

وإذا كان يحق لتراثنا العربي أن يفخر بأنه أنجب شعراً يتناول قصص الحب العذري ("قيس وليلى" "جميل بثينة" "قيس ولبنى") فإننا اليوم نعايش امتداد هذه الظاهرة في أدبنا الحديث بفضل الحب السماوي الذي بزغت أنواره بين قلبي الأديبين مي زيادة وجبران خليل جبران، رغم أنهما لم يلتقيا أبداً، فقد كانت الرسائل المتبادلة بين القاهرة حيث تقيم (مي) ونيويورك حيث يقيم (جبران) هي وثيقة هذا الحب الفريد!

ولكن مع الأسف ضاعت معظم رسائل المرأة في الثلاثينيات وبقيت رسائل الرجل (كما ذاعت في الستينيات رسائل غادة السمان وبقيت رسائل غسان كنفاني) رغم أن (جبران) كان يعيش في أمريكا، حيث تتم العناية بكل ما يتركه الأديب، وفعلاً هذا ما حصل إثر وفاة جبران، إذ حافظت سكرتيرته وأخته على أعماله الأدبية والفنية وأشيائه!!...

هنا لابد أن نتساءل: هل المرأة أكثر حرصاً على رسائل حبها من الرجل؟ أم أن ميراث جبران قد تعرض لعملية سطو إثر وفاته، كي لا نظلم الرجل؟

نعتقد أن التساؤل الأول يخفي تعصباً نسوياً يهاجم وفاء الرجل، لذلك نميل إلى التساؤل الثاني، فقد ذكر ميخائيل نعيمة في كتابه عن حياة جبران أنه رأى تلك الرسائل لديه، لهذا من الأرجح أن تكون تلك الرسائل قد سرقت من قبل امرأة لبنانية أرادت أن تكون حبيبة جبران الوحيدة.

مهما تكن الإجابة فإن النتيجة واحدة، وهي غياب صوت المرأة في هذا الحب! كما غاب صوتها في الحب العذري الذي خلّده لنا الشعراء! وقد آلمني أن يضيع صوت المرأة في هذا العصر كما ضاع في الماضي، فحاولت نسج خيوط هذه العلاقة في "رواية الحب السماوي بين مي زيادة وجبران خليل جبران"، لعلي أقدّم معاناة المرأة عبر تخيل صوتها والاقتراب من تجربة حب فريد تعيشه المرأة معاناة يومية منذ تفتحها وحتى موتها!..

لم تكن مي امرأة عادية، فقد امتزجت في ملامح شخصيتها الريادة الأدبية بالريادة الاجتماعية في بداية القرن العشرين، لهذا كانت أولى خطواتها في هذا المجال هي الإقبال على التعليم والتفرغ للكتابة، وقد دفعها حبها للغة العربية أن تفتح بيتها، بتشجيع من والديها، لرجال الأدب، فكانت تحاورهم وتستمع إلى إبداعاتهم في صالونها الذي كانت تعقده كل يوم ثلاثاء، مما أثر إيجابياً على عملها الصحفي والأدبي، فقد عملت مع أبيها في صحيفته "المحروسة" التي افتتحها في القاهرة، كل ذلك في زمن لم تكن المرأة العربية تجرؤ على الخروج من المنزل وحدها.

لم تحاول مي الخروج من الأغلال الخارجية التي تقيد المرأة فقط، بل وجدناها تحاول الخروج من أغلال الذات، فكانت رائدة في محاولة التعبير عن أعماقها عبر الأدب (الرسائل، المقالة، الخاطرة الوجدانية التي وجدناها في كتبها) أي عبر أجناس أدبية تظهر صوت (الأنا) صريحاً واضحاً، وبذلك استطعنا أن نعايش أعماقها بكل ما يعتلج فيها من عواطف وأحلام وصراعات، إذ من المعروف أن الكاتبة العربية لم تجرؤ على الخوض في هذا المجال إلا بعد (مي) بأكثر من خمسين سنة، وهي، غالباً، حين تريد أن تعبر عن ذاتها تتخذ قناع الشخصية الروائية (وهذا ما فعلته الأديبة غادة السمان في روايتها "الرواية المستحيلة فسيفساء دمشقية"(١٩٩٧). والتي إلى الآن لم تصدر الجزء الثاني المتعلق بمرحلة الشباب، وتوقفت عند مرحلة الطفولة والمراهقة!!).

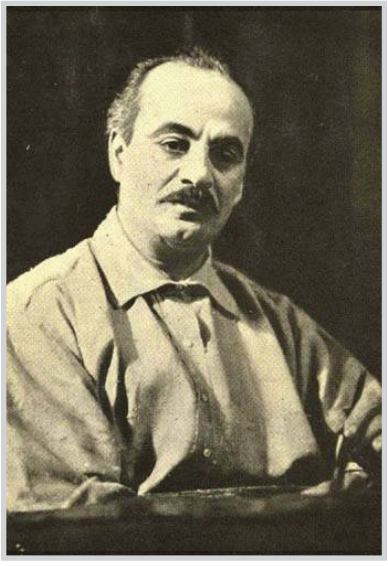

هنا يجدر بنا أن نوضح أن (مي) لم تكن في بداية علاقتها بجبران امرأة منطلقة في التعبير عن ذاتها، فقد اكتفت في البداية بالعلاقة الفكرية، بل دعت جبران للالتزام بحدودها، فاتسمت لغتها بالحذر، وتحصنت باللهجة الرسمية في الخطاب، فأخفت مشاعرها بألف قناع، حتى وجدنا جبران يتساءل مستغرباً شدة ترددها وحذرها: "أهو الخجل أم الكبرياء أم الاصطلاحات الاجتماعية". لعله كان يقارنها بالمرأة التي التقى بها في الغرب، والتي تتمتع بحرية التعبير عن أعماقها! دون أن يغفل عن خصوصية المرأة الشرقية وضغط القيود الاجتماعية عليها، مما تضطرها إلى الاحتماء بالخجل تارة وبالكبرياء تارة أخرى!..

من المؤكد أن (مي) في البداية سعت إلى توظيف المراسلة بينها وبين أديب مشهور، كي تجعلها عاملاً في تطويرها الفكري والأدبي، ولم تتوقع أن تقع أسيرة كلماته، لكنها حين أحست أنها بدأت تحرك عواطفها وتمتّع ذائقتها الفنية معاً، بدأت بالتهرب منها!..

هنا لا نستطيع أن نفصل بين مي الإنسانة والأديبة، فقد عشقت مي الأديبة كلماته ربما قبل المراسلة، وازدادت عشقاً لها بعدها، فانقلب العشق الفني إلى عاطفة متأججة يأباها عقلها، لهذا ملأ التردد ذاتها، وشاعت لديها الصرامة في محاسبة الذات ومحاسبة الطرف الآخر (المرسل) على كل كلمة، لهذا وصفها جبران في إحدى الرسائل بـ(الموسوسة) التي لا تعرف سوى التردد، من هنا لن نستغرب تكرار هذه الأفكار والمواقف التي نستشفها من رسائل جبران، فهي محبة يعجبها الاستمرار مع جبران في مثل هذه المغامرة، لكن سرعان ما يؤرقها صوت العقل الذي يذكرها بالواقع الاجتماعي الذي يعلي قيمة الأسرة والزواج في حياة المرأة، ولم يعتد مثل هذه علاقات الصداقة والحب بين المرأة والرجل دون رابط شرعي! كما يذكرها صوت العقل بوقع الزمن الذي لا يرحم المرأة، فكانت تنقطع عن مراسلته أشهراً طويلة، ثم تعود، ومع عودتها كانت تضطر لمعاودة الحوار مع ذاتها لإقناعها بضرورة علاقتها مع جبران، وقد كانت تعيش صراعاً دائماً مع ذاتها، فتتكرر محاسبتها لها، لهذا كانت تتكرر أسئلة جبران مستفهماً أسباب الانقطاع، فكانت تدافع عن وجهة نظرها بترداد حججها نفسها، التي تزداد مع الأيام وجاهة وإقناعاً! إذ تنطلق باسم العقل الذي لا ينفصل عن المشاعر كما يعتقد الكثيرون!! كما نجدها تنطق باسم المجتمع حيث كانت أمها أحد الأصوات القوية التي تردد على مسامعها أن الزمن لا يرحم وأن الاستقرار ضروري للمرأة! لهذا كله انتظرت حوالي اثنتي عشرة سنة لتصرح بعواطفها كتابة لجبران، ولتبين له أن الورق هو الذي منحها الجرأة، وأنه لو كان يشاركها العيش في بلدها لما جرؤت على ذلك! لكن يبدو أن التصريح لم يجلب لها الراحة المتواخاة، أو الأمل بعرض للزواج يأتيها من جبران! لذلك تعود إلى ترددها وتهربها خاصة بعد أن غزا الشيب مفرقها!.. لكن عاطفتها القوية تلح عليها بالكتابة، يضاف إلى تلك العاطفة حس

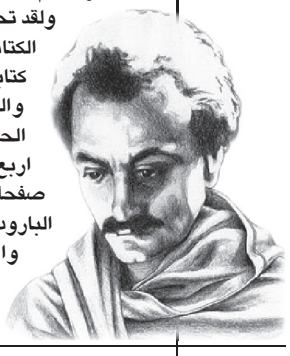

وجدنا جبران يتساءل مستغرباً شدة ترددها وحذرها: "أهو الخجل أم الكبرياء أم الاصطلاحات الاجتماعية". لعله كان يقارنها بالمرأة التي التقى بها في الغرب، والتي تتمتع بحرية التعبير عن أعماقها! دون أن يغفل عن خصوصية المرأة الشرقية وضغط القيود الاجتماعية عليها، مما تضطرها إلى الاحتماء بالخجل تارة وبالكبرياء تارة أخرى!.. من المؤكد أن (مي) في البداية سعت إلى توظيف المراسلة بينها وبين أديب مشهور، كي تجعلها عاملاً في تطويرها الفكري والأدبي، ولم تتوقع أن تقع أسيرة كلماته

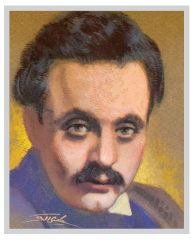

لـمَ لـم أقرأ جبران؟

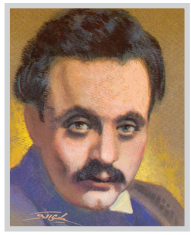

لا يمكننا أن نحمّل الكلمة المجنحة المسؤولية عن تدهور حالتها النفسية وإغراقها في الكآبة، لأننا نلغي إرادتها في استمرار تلك العلاقة، التي جلبت لها الفرح والألم معاً!.. لكننا نستطيع أن نحمّل أقاربها في مصر ثم في لبنان تلك المسؤولية، إذ بدؤوا بإزعاجها منذ وفاة أبيها (١٩٣٠) فطالبوها بالإرث، بل وصل بهم الطمع حد مطالبتهم بنصف ثروتها التي كونتها مع أبيها! وحين رفضت زاد إزعاجهم لها

فوزي كريم

إنساني مرهف بآلام الآخرين، لهذا كان قلقها على صحة جبران من أسباب عودتها للكتابة إليه أحياناً!..

لعل هذا التردد في قبول مثل هذه العلاقة الاستثنائية أحال حياتها إلى مأساة، فعاشت القلق والمعاناة في علاقة كان عزاؤها فيها هو الخيال والرحلة عبر الكلمة إلى عوالم مدهشة، تنأى بها عن الواقع واحتياجاته الطبيعية.

لم تستطع (مي) الركون إلى هذه العلاقة سوى لحظات تحلق بها بعيداً، ثم ترتطم بالأرض، فالمرأة المثقفة والأديبة كانت تبحث عن علاقة طبيعية، تعيش فيها عواطفها وأمومتها! وفي الوقت نفسه تحلق روحها فيها بعيداً عن المألوف في علاقة أقرب إلى الاستثناء!..

أعتقد أن روعة شخصية (مي) تجلت في كونها أنهت صراعها الداخلي حين تأكدت في النهاية من مرض جبران، فبدت لنا امرأة عاشقة وأماً حانية، تسعى للوقوف إلى جانب جبران في محنته!... فتحيطه بعواطف الحب والأمومة معاً!!..

إن المتأمل في قصة الحب هذه، لابد أن تدهشه قدرة المرأة على الحب والعطاء، فقد منحت رجلاً لم تره أبداً كل حياتها، حتى أصبح هذا الحب مأساتها وعزاءها معاً! فقد أحبت جبران عبر كلماته، وأخلصت له، حتى إنها عاشت تستمد القوة منها سواء في حياة جبران أم بعد وفاته!..

للوهلة الأولى تبدو لنا (مي) امرأة تعيش حياة منطلقة بالقياس إلى نساء عصرها الشرقيات، إذ استطاعت أن تجمع في صالونها أبرز أدباء عصرها (طه حسين، العقاد، الرافعي...)، وذلك بفضل سماتها الشخصية (الثقافة واللباقة والروح المرحة والإخلاص والصدق) مما يدفعني إلى الاعتقاد بأنها أسهمت في تطوير الحركة الثقافية في تلك الفترة، خاصة أنها خلقت جواً تنافسياً بين الأدباء، فكل واحد منهم كان معنياً بكسب ودها، بل عاطفتها! لكنها رغم ذلك ظلت امرأة شرقية متحفظة في علاقتها مع الرجل، إلى درجة أن العقاد قال لها يوماً: أنت تعيشين كراهبة في صومعة! فهي من الناحية الشعورية ظلت أمينة لعادات الشرق وتقاليده، لهذا استطاعت أن تنال احترام مجتمعها رغم اختلاطها بالرجال هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان ذلك خير دليل على إخلاصها لجبران!!..

لقد تجاوزت مي المألوف حين وجدت في كلمات الحب ملاذاً عاطفياً لها، فسجنت حياتها فيها، فاختارت حباً أشبه بالخيال على حياة عادية، فحرمت نفسها من دفء العائلة وضحت بسببها بالأمومة التي هي حلم كل امرأة!..

ولعل خير دليل على أهمية تلك الكلمات في حياة (مي) أنها عاشت متألقة في حياتها الاجتماعية والأدبية على وقع رسائل جبران، ولم تتدهور حياتها النفسية إلا بعد وفاة جبران (١٩٣١) إذ عدّت نفسها أرملته، فارتدت السواد عليه، ومما فاقم بؤسها وفاة أمها في إثره (١٩٣٢) لعلها في تلك الفترة بدأت تشعر بعدم الرضى عن نفسها، واكتشفت أن قرارها بعدم الزواج لم يكن صائباً! وبدأت تحاسب نفسها بقسوة، فقد أحست بمدى الظلم الذي ألحقته بحياتها حين تعلقت بكلمات جبران، ووهبت شبابها لحب سماوي لا علاقة له بالواقع وبطبيعة البشر!..

لا يمكننا أن نحمّل الكلمة المجنحة المسؤولية عن تدهور حالتها النفسية وإغراقها في الكآبة، لأننا نلغي إرادتها في استمرار تلك العلاقة، التي جلبت لها الفرح والألم معاً!.. لكننا نستطيع أن نحمّل أقاربها في مصر ثم في لبنان تلك المسؤولية، إذ بدؤوا بإزعاجها منذ وفاة أبيها (١٩٣٠) فطالبوها بالإرث، بل وصل بهم الطمع حد مطالبتهم بنصف ثروتها التي كونتها مع أبيها! وحين رفضت زاد إزعاجهم لها، حتى وصل شرهم حدّ تدبير مكيدة إدخالها مشفى المجانين في لبنان! ولولا مساعدة أهل المروءة من الأدباء (أمين الريحاني) والشرفاء من أمثال أولاد الأمير عبد القادر الجزائري وغيرهم من الصحفيين والمحامين لما خرجت من محنتها!!.

المدهش أن (مي) حملت رسائل جبران معها، في كل مكان رحلت إليه، ورافقتها في مأساتها في مشفى (ريفز) في بيروت أطلعت عليها جارتها في الغرفة المجاورة، فقد شكلت لها عزاء في مأساتها الرهيبة!..

إننا أمام امرأة غير عادية أخلصت لحب رجل، يعيش بعيداً عنها، ويعترف لها، في إحدى رسائله، أن حياته موزعة بين امرأتين، (امرأة الحلم وامرأة الواقع) فكان نصيب (مي) دور الملهمة التي تحمل روح الشرق الذي يحلم بالعودة إليه دون أن يستطيع، فيرسل لها تلك الكلمات المجنحة، التي تعبر عن عواطفه لها، فتشدّها إليه كلما حاولت فكّ أسرها! في حين كانت امرأة الواقع (ماري هاسكل) تقف إلى جانبه فتسانده مادياً ليكمل رحلته في عالم الفن، كما ساندته معرفياً، حين كانت تصحح له نسخ كتبه التي كان يكتبها بالإنكليزية!

وتعترف ماري هاسكل أنه عرض عليها الزواج لكنها رفضت، ربما بسبب الفارق الكبير في السن، وربما بسبب علاقاته النسائية المتعددة! المهم أن صداقتها بجبران تستمر رغم زواجها، كما استمرت (مي) في حبها له رغم عدم زواجه بها! فقد أسرتها كلماته المدهشة، التي تستلب الروح والإرادة بعنفوانها وصدقها "أنت تحيين بي، وأنا أحيا بك" كما أسرتها صراحته، فقد وجدناه يكشف لها عيوب نفسه فهو يعيش في سجن طموحاته، يلاحقه إحساس أنه لم يقل شيئاً خالداً بعد، وأنه مؤرق بهاجس الإبداع الذي يحتاج تفرغاً كلياً، لعله يستطيع أن يقول كلمته، وهكذا يوضح لها أنه يعيش أسير مشروعاته الفنية والأدبية، وأن المرأة في حياته ملهمة ورفيقة إبداع بعيدة عن الأطر المألوفة!

لقد عاش جبران في الغرب كما يروي صديقه ميخائيل نعيمة حياة منطلقة دون أية قيود، فعرف العديد من النساء، وطمح إلى أن يعيش حياة خيالية مع امرأة شرقية، تغذي إبداعه بنبض خاص، كانت هذه الازدواجية تريحه وربما مصدر إلهام له، في حين كانت العلاقة بالنسبة إلى (مي) حياتها بأكملها رغم أنها خيال أقرب إلى الحلم! فبدت كلماته تسري في عروقها لتمنحها دماء الحياة وألقها، لقد كانت (مي) ضحية علاقة رسمها الرجل كما يريد له طموحه الإبداعي بمعزل عما تريده المرأة أو تحلم به.

إذا لو كانت مي امرأة عادية لرفضت تلك العلاقة التي كانت عبئا عليها!! هنا نتساءل: هل طغت على (مي) رهافة حس الأديبة، فعاشت مخلصة للكلمة في حياتها الشخصية وفي حياتها العامة! هل رأت في الخيال جمالاً يفوق الواقع؟ هل كانت كلمات جبران حلماً لاذت به يعوضها عن بؤس الواقع؟... هل حياتها في مصر أي في بيئة غريبة عن بيتها في الشام سبباً في تعلقها بجبران، الذي رأت فيه وطناً تنتمي إليه!؟ هل أحست بأن هذه البيئة العربية قد عجزت عن إنجاب كفء لها؟.. فكان الخيال أرحم بها من الواقع!.

ربما افتقدت في محيطها الرجل الند لهذا عاشت قصة حب ترضي ذاتها، ولو كان ذلك عبر الوهم والخيال، مادام الواقع لم يطرح أمامها من يراه قلبها مناسباً فعاشت الصدق والإخلاص لعلاقة أشبه بالحلم، بل دعاها فيها جبران بامرأة الحلم.

لقد أدهشتني تضحية المرأة بشبابها من أجل حب سماوي، كما آلمني ضياع صوتها الخاص بضياع معظم رسائلها، رغم أنها ضحت بحياتها من أجل هذا الحب! لهذا تجرأت في كتابي "الحب السماوي بين مي زيادة وجبران خليل جبران" على تجسيده عبر الخيال مستعينة برسائل جبران، كي أستطيع استشفاف ردود فعل مي، وأبيّن أن الكلمة لم تكن محور حياتها الأدبية فقط، وإنما محور حياتها الشخصية!..

لهذا يمكنني القول بأن أبطال هذا الحب السماوي ثلاثة (مي وجبران والكلمة المجنحة).

ولكن ألم تكن الكلمة والخيال أحد أسباب كآبة (مي) التي ملأت الغصة حياتها؟

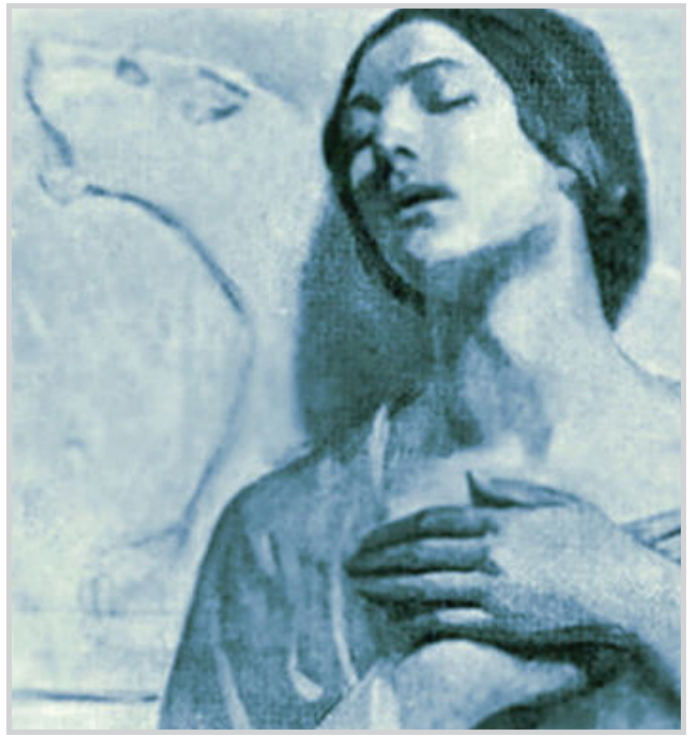

في مرحلة صبا القراءة، وعلى غير عادة أبناء هذه المرحلة، كنت لا أقرب كتابات جبران خليل جبران. أو كنت أقربها بمشاعر من يقرب نصوصاً غير جدية.

لم أكن أحسن معرفة صفة النص الجدي، والآخر الذي لا يتمتع بهذه الصفة. على أني كنت أجتهدُ، من غير وعي بالتأكيد، في أن النص غير الجدي هو الذي تُقبل عليه بيسر ومن غير عنت. ويبعثُ فيك مشاعر من يقرأ ليستمتع، لأن من مزايا النص الجدي أن لا يمتعكَ، في الظاهرِ في الأقل.

الخطأ القديم كانت له منافعُه أيضاً. محاولة معرفة لماذا أقرأ، ولأي هدف؟ ولكن هذه المنافع كانت على حساب جبران بالتأكيد.

مع النضج عرفت أن جبران الإنكليزية يتمتع بما يتمتع به جبران العربية من شهرة وشيوع. بل أن شيوع جبران الإنكليزية (وقد كتب ٨ كتب من ١٧ منها بالإنكليزية) أوسع بكثير من جبران العربية. عرفتُ أن جبران هو الاسم الثالث الأكثر مبيعاً بعد شكسبير ولاو تسو. وأن كتابه «النبي»، الذي يتكون من ٥٦ قصيدة نثر يتحدث فيها عن راءٍ يشبه زرادشت نيتشة، قد باع في أمريكا وحدها، منذ طباعته عام ١٩٢٣، أكثر من ٩ ملايين نسخة. وأنه أصبح إنجيل الجيل الستيني الغربي، حتى صار يبيع بينهم قرابة ستة آلاف نسخة في الأسبوع الواحد. وأنه جعل اسم جبران يُطلق على مدارس في أمريكا، وجعل نصوصه تُقرأ في حفلات الزواج، والجنائز، ويُستشهد بها في كتب الفن المدرسية، وفي تعاويذ الحمل، والأرق والرغائب.

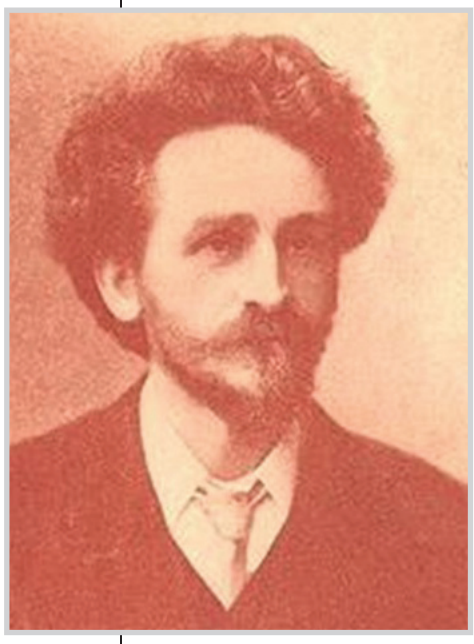

ولكن هذه المعرفة لم تكن كفيلة بترغيبي في قراءة جبران، وإعادة النظر في نصه، الذي رأيته أيام الصبا غير جدي. فما زلت أجده وجدانياً بميوعة، مثالياً من دون صلابة. ثم أن نقاد الأدب الإنكليز لم يلتفتوا إليه التفاتة مبالية، وجدية، بحيث يدفعني الأمر إلى المبالاة والجد. فلم يصدر عنه في هذا الحقل كتابٌ واحد. وفي حقل السيرة لم يصدر عن حياته، برغم كل هذه الشهرة، إلا كتابان: الأول أصدره ابنُ عمه الذي يحمل الاسم ذاته «خليل جبران» عام ١٩٧٤، بعنوان «خليل جبران: حياته وأعماله». والآخر أصدره روبن وترفيلد عام ١٩٩٨ بعنوان «النبي: حياة وزمان خليل جبران».

كان في حياة جبران شيءٌ ما من إيهام النفس وإيهام الآخر، يلقي على النص المتسامي ظلّ ارتياب. حينَ أسر به الفنان المتصوف فريد هولاند دَي ذو الميول الشاذة، وجبران بعد في سن الثلاث عشرة سنة، صار يقدمه كرسام في كل محفل على أنه «النبي الصغير».

كان والده سكيراً في لبنان، فأصبحت الوالدة هي المعتَمَدة في تربية الأطفال. هاجرت بهم إلى أمريكا وهناك علمتهم العمل إلا جبران، الذي كان ميالا بطبعه إلى التأمل فصارت تدفع عنه السائلين على أنه غائبٌ برغم حضوره الجسدي. وبالرغم من الموت الذي خطف العائلة جميعاً في مرحلة مبكرة، أمه كاملة وأخته سلطانة وأخاه بطرس، ظلّ جبران على طموحه، تحت رعاية وتشجيع جديدين من الكاتبة هاسكل، التي أحبته وأعانته مالياً، حتى أنها أرسلته للدراسة إلى باريس على حسابها الخاص، فصار يأخذ دعم هاسكل المالي من دون تعويض من عاطفة حيال المرأة الكريمة، والمولّهة. حين رجع من لبنان عام ١٩٠٢، بعد سنوات دراسة امتدت ثلاثاً، كان يحكي للصحفيين عن الغنى الكاذب لعائلته الأرستقراطية الذي تركه وراءه، ويتحدث عن اكتشافه للنظرية النسبية، ويضع على لسان النحات رودان، حين التقاه في باريس، كلاماً لمْ يقله، يراه فيه «وليم بليك القرن العشرين»! يضاف إلى ذلك هذا الإدمان الكحولي على احتساء العرق السوري. كانت أخته ماريانا تزوده به بالغالونات ، والذي أدى به إلى تلّف الكبد ومن ثم الموت! أمور كثيرة إذن تُعزز موقفي منذ أيام الصبا. استعدتها وأنا أتأمل الطبعة الجديدة الفاتنة التي صدرت بالإنكليزية لأعماله الكاملة، عن دار Everyman الشهيرة.

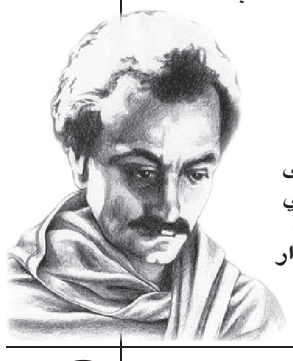

جبران

الحاضر دوما

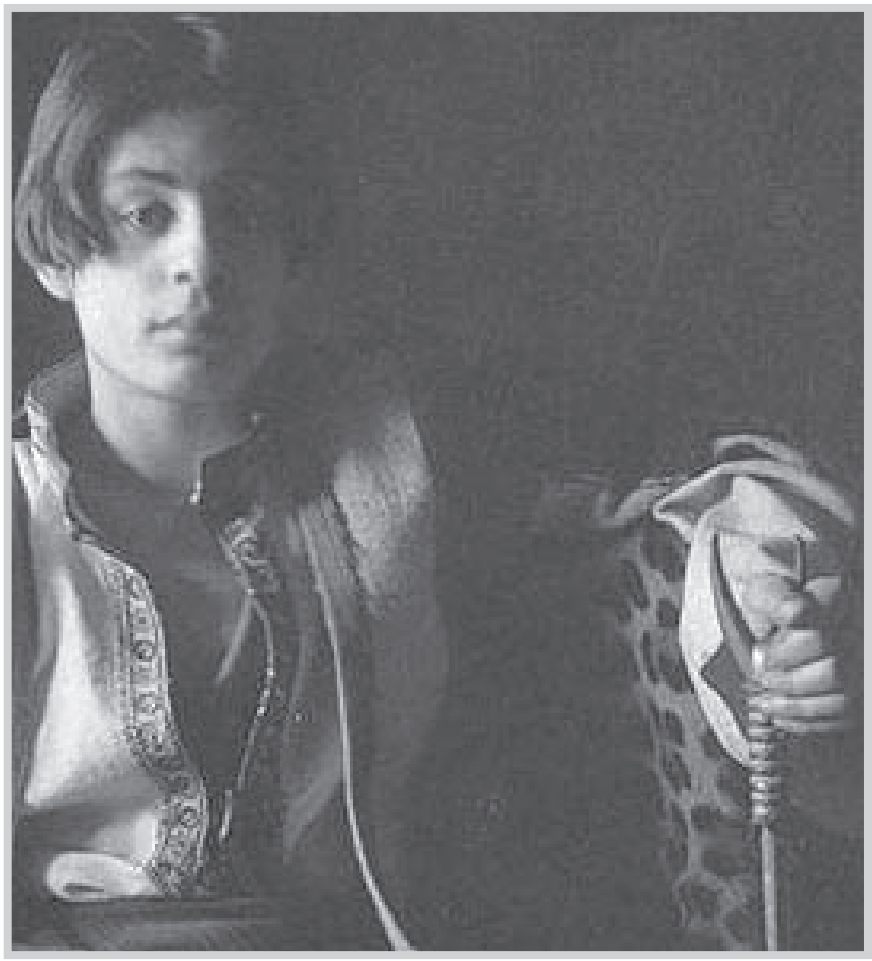

(...) وصرخ قائلاً: "إن هذا الرجل مجنون أيها الناس!" وما رفعت نظري لأراه حتى قبّلت الشمس وجهي العاري، فالتهبت نفسي بمحبة الشمس، ولم أعد بحاجة إلى براقعي. وكأنما أنا في غيبوبة صرخت قائلاً: "مباركون مباركون هؤلاء اللصوص الذين سرقوا براقعي!...

كلمات من جبران خليل جبران قد تشكّل أفضل البدايات للكتابة عن هذا الأديب اللبناني والعالمي الذي تبقى أعماله وبشكل خاص كتابه النبي خارج التصنيفات الأدبية لما تضمّنته من شعر وفلسفة وروحانيات وماورائيات واجتماع وسياسة وفانتازيا حلمية قريبة من الرؤيا وحب وطبيعة وموت وحياة وتمرّد وثورة وما وراء الحياة. كل هذا نستعيده ونعيشه من جديد في كل مرة نستذكر فيها جبران خليل جبران، الذي يبدو اليوم وفي كل ما تستعيده فيه المؤسسات الأدبية والفكرية في العالم، في ذكرى ١٢٥ عامًا على ولادته، حاضرًا ومتجاوبًا وفاعلاً مع واقعنا في كل ما كتبه.

كوليت مرشليان

جبران الشاعري والثائر والمجنون، جبران في روحانياته التي استقت من كل الأديان السماوية، فرفضت هنا وتجرأت هناك، وبنت صرحًا أو عالمًا خاصًا به جمع فيه كل من أحب وكل من أثّر به، حتى يخال للقارئ لأعماله أن كل من عرف جبران أو كل من أحبه أو عايشه وتلمّس مناخاته قد مسّته الألهة وصار في منزلة مترفعة هي بين الأرض والسماء، أو بين الواقع والمتخيّل، أو في تلك الحديقة-الجنّة الفسيحة والعطرة التي بناها جبران على الأرض، وأثارت جدلاً فلسفيًا ودينيًا.

وهذا يعود إلى قدرة هذا العبقري على الدمج الملتبس والغامض الذي أحدثه بين الواقع والدين، أو بين مناخات "سماوية" جعلها في كتاباته تسطع على الأرض في رغبة هائلة لديه لرؤية الإنسان على صورة الله. وقد تكون هذه هي النقطة الأساسية في كل كتابات جبران، تلك التجربة الإنسانية والكتابية المتفوقة لديه في خلق عالم روحاني على الأرض، وهو قطع قرنًا كاملاً على هذه الكتابات من دون أن تخسر هذه الأخيرة الرهان، أو لربما هو أكثر من رهان، هو حقيقة لمسها جبران وحاول أن يجعلنا نلمسها بدورنا.

ليس من قارئ لجبران خليل جبران في سنين مراهقته وبعدها في استعادات دائمة لأعماله إلا وتعلّق بأعمال الرجل، وبالبعد الروحاني والشعري الهائل لمؤلفاته التي تعطي إجابات على كل الأسئلة، من دون أن يعرف القارئ أن يحدد جوابًا منها. بل إن مجموع أعماله صرخة واحدة في وجه الإنسانية، صرخة هائلة، مدوية وأحيانًا هامسة وخافتة، تقول ولا تقول، تضع الإصبع على الجرح، تفتح أبوابًا موصدة، تحاكي المجهول والخفي والغامض، تسرح في الحقول الشاسعة، تقطع الدروب الوعرة وتمضي وتمضي معه نحو أفق لامتناهي. وكأن جبران، في كل ما كتبه، حاول أن يشرح للقارئ كل أحاسيسه وأفكاره حيال الكون والحياة والخالق، كذلك كل مشاعره القوية تجاه الإنسان على الأرض. فكل إنسان أو كل شخصية كتب عنها جبران أو وصفها، قد أضفى عليها مسحة ربانية، وصاروا كلهم معه في "حديقة النبي" تلك التي تقع على تخوم أرض الواقع.

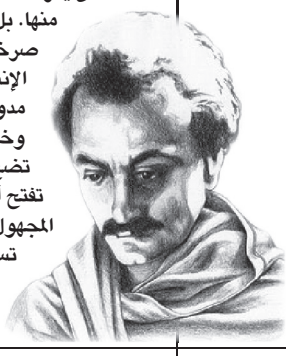

غابات الأرز

وإذا كانت الأرض التي ولد فيها جبران، وبالتحديد بلدته بشري الشمالية القريبة من غابات الأرز في لبنان، قد جعلت الفتى الصغير يتعلق بجماليات طبيعتها، فهي أيضًا علمته الثورة والعصيان والتوق إلى الحرية في خضم الأحداث التي شهدتها في الحقبة الزمنية التي ولد فيها جبران تمامًا، كالتي عاشها الوطن في كل جهاته من فقر وحروب وصراعات داخلية واحتلالات نمت لديه روح التمرّد وحب التغيير.

ولد جبران خليل جبران في السادس من كانون الثاني من العام ١٨٨٣ في بشري، وشهدت المنطقة في تلك الحقبة من الحكم العثماني صعوبات معيشية، وكان أصعبها على عائلة جبران، المؤلفة من أربعة أولاد، حين أدخل الوالد إلى السجن لجرم سرقة لم يرتكبه. لكن ذلك لم يجعل الوالدة كاملة رحمة تغيّر رأيها في أن ابنها الفتي جبران "عبقري" أو "ليس كسائر الأولاد". وهذا الإصرار لدى والدته لم ينبع من أوهام بل من تفاصيل وإنجازات إبداعية كان يقوم بها الولد جبران المحاصر بالفقر والسابح في عالم آخر داخل رأسه وقلبه. وهذا التعلّق العاطفي أو التواطؤ الجميل ما بين جبران الصغير وأمه كان أجمل البدايات لعواطف الرجل الذي آمنت به تلك المرأة الذكية، وهي أصرّت على فتح الأبواب أمامه، حتى أن قرار الهجرة إلى أميركا كان لسببين، ثانيهما تأمين لقمة العيش للعائلة، وأولهما أن يكمل جبران تعليمه. وما بين لبنان وبوسطن وباريس ونيويورك بدأ جبران الكتابة، ولكن كان هناك دومًا ظل المرأة وراءه، وسرعان ما تغيّرت المرأة من دون أن يتغير وقعها عليه، من والدته انتقلت شرارة الحب والرعاية إلى ماري هاسكل. وحين تزوّجت الأخيرة، اكتفى برسائل الأديبة الصديقة مي زيادة التي لم يلتقها في حياته لكنها ساندته من البعيد، وأيضًا كانت هناك صديقته بربارا يونغ وأخته مريانا وغيرها من النساء اللواتي خلدهن في رسوم حاول من خلالها، وعلى ملامحهن، أن يرسم وجه الإنسانية.

سبر الأغوار

وفي ذكرى جبران لا يسعنا إعادة الحديث والكتابة عن حياته وظروفها، أو عن مؤلفاته وتأويلاتها المتداولة منذ قرن، لكن ثمة ما تبدّل في نظرة العالم إليه، وهي خطوة باتجاه سبر أغوار عالمه وأسلوبه الكتابي السهل الممتنع. كذلك ينظر النقاد اليوم إلى رسومه بشكل مختلف. فحين كان الأمر مجرد دراسة تقليدية في بادئ الأمر، بالنظر إلى أسلوبه في رسم الجسد الأنثوي أو الذكوري، كانت الاعتبارات مختلفة كمثل تجاهله لتفاصيل دقيقة في تقنيات رسم العري، لكن الأمر بات مختلفًا اليوم مع تطوّر النظريات التشكيلية المنفتحة على كل الأساليب، وما كان مرفوضًا أو موضع نقد صار يشكل سؤالاً جديدًا في فهم عالم جبران: كل هذا العري الذي رسمه جبران، ما كان معناه؟ لماذا تبدو بعض الأعضاء منقوصة أو مبهمة أو باهتة؟ هل تعذّر على جبران اتقان العري أكثر أم أنه تقصّد جعل بعض النقاط في الجسد بارزة أكثر من غيرها، أو مشوشة، أو حتى مبتورة؟ ومن دون شك، أن جبران التلميذ الباريسي في أبرز المعاهد قد رسم العري الكلاسيكي بكل التقنيات غير أنه اختار العري الطالع من قصائده ومقاطعه النثرية الخلابة، حيث الجسد جزء من الطبيعة اللصيقة بالإنسان. والعري مع جبران حقيقة، نافذة على الحقيقة، أو في لوحات أخرى هو كل الحقيقة المشرعة الأبواب. جرّد جبران كل شخصياته في رسومه من لباسهم، وجعلهم يرتدون عريهم المقنع، أي وكأنه رسم العري فوق الآخر الأعمق والأشد التصاقًا بالروح. وكلما توضح العري، وغاب الضباب عنه، تلمس الحقيقة أكثر. وكأن كل شخصية عارية في رسومه هي أيضًا نتيجة تشكّل لعناصر الطبيعة في جنونها وعواصفها، أو في أنقى حالاتها، حيث تختلط الرياح بالرمال بالماء بالضوء، لتظهر رؤيا عارية مجردة، فتظهر أيضًا الوجوه الجبرانية باهتة ساكنة وكأنها بين الحياة والموت، أو في بعد آخر بين الألوهة والطبيعة البشرية: كلهم رسمهم على هذا النحو من أفراد عائلته في بشرّي إلى أصدقائه وحبيباته في بوسطن ونيويورك، ما يعني أن جبران بقي في كل تنقلاته خارج الزمان والمكان مقفلاً على التأثيرات الخارجية حين هو ينظر إلى كل إنسان عايشه نظرة ميتافيزيقية وفلسفية صرفة.

يختبر الحزن

عاش جبران ليرسم ويكتب لكنه لم يعش طويلاً: ٤٨ عامًا فصلت الطفل المدهوش بالكون عن الحقيقة التي لمسها مع رحيله. رحلة عاشق للحياة والطبيعة والإنسان تخللتها المآسي والأحزان، في فقدانه، أولاً، لمعظم أفراد عائلته بمرض السل، وصولاً إلى غربته عن الوطن. وفي المرحلة الأخيرة عزلته بعد إصابته بالمرض. ولكن في كل هذا، كان جبران يختبر الحزن في معانيه الإنسانية ويختبر الموت ورحيل من يحب، جاعلاً كل تلك التجارب تعمّق إحساسه أكثر بالحياة، تمامًا اختبر بنفسه معنى الصلب في صغره حين وقع وهو في العاشرة من عمره عن صخرة عالية في قريته وكسر كتفه ما جعل الأطباء يقررون تركه في وضعية الصلب شهورًا عديدة ليلتحم الكسر، وهذه الحادثة تركت أثرها في نفسه، خصوصًا حين كتب يسوع ابن الإنسان.

النبي

أما كتابه النبي الذي كان حلم حياته طوال سنوات، فكان خلاصة تجربة فلسفية ودينية وأدبية عميقة. لكن ثمة سؤال ظلّ يؤرق النقّاد ولا زال يطرح حتى اليوم ويتعلق بتصنيف النبي: هل هو شعر وأدب؟ هل هو فلسفة؟ هل هو دين أو ما يقارب الدين؟ كل هذا يُطرح حول ألغاز الكتاب ومناخاته وشخصياته الملتبسة ما بين أرضية وسماوية وأمكنته الملتبسة كذلك معانيه. لكن ما تأكد حول النبي هو ذاك الإجماع على روعة كل ما قاله جبران، وما رمز إليه في شخصيات الكتاب، من "المصطفى" إلى "المطرة" وغيرهما، وفي رائحة البخور التي تفوح منه. وهو إن تحدث بلغة الأنبياء، وإن بحث في الماورائيات، فإنما بقي في الواقع وفي حضرة الإنسان، ذاك الإنسان بطله الأول والأخير، وأيضًا ذاك الشرق: "وصوب الشرق أبحرت السفينة"، سفينة النبي الذي عاد إلى مهد فلسفته وحضارته وديانته وإيمانه بعد أن نطق بكل ما نطق في الكتاب.

وإذًا، وجهة "نبيّه" صوب الشرق. فجبران وقع تحت سحر الشرق، وبالتحديد تحت سحر وطنه وطبيعته، حيث ارتبطت روحانياته بتلك البقعة الطبيعية، فأبدع في مزج المشهدية الطبيعية بصورة الخالق وبالتواصل معه. في رسالة إلى ماري هاسكل كتب: لقد هبّت العاصفة الرهيبة التي كنت أنتظرها. السماء ملبّدة، والبحر مزبد وأرواح الآلهة المجهولة تطوف بين السماء والبحر...

ما الذي في العاصفة يهزّ كياني على هذا النحو؟ لمَ أجدني أفضل وأقوى وأكثر ثقة بالحياة عندما تهبّ عاصفة؟...

عاش جبران ليرسم ويكتب لكنه لم يعش طويلاً: ٤٨ عامًا فصلت الطفل المدهوش بالكون عن الحقيقة التي لمسها مع رحيله. رحلة عاشق للحياة والطبيعة والإنسان تخللتها المآسي والأحزان، في فقدانه، أولاً، لمعظم أفراد عائلته بمرض السل، وصولاً إلى غربته عن الوطن. وفي المرحلة الأخيرة عزلته بعد إصابته بالمرض. ولكن في كل هذا، كان جبران يختبر الحزن في معانيه الإنسانية ويختبر الموت ورحيل من يحب، جاعلاً كل تلك التجارب تعمّق إحساسه أكثر بالحياة

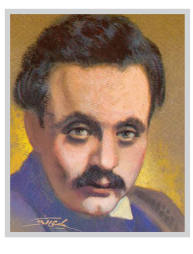

وكان جبران يعترف بضعفه أمام وطنه تمامًا كما كل إنسان له ضعفه وحبه وانتماءاته. وتلك البقعة، التي عاش فيها طفولته، بقيت هي الأساس في رأسه وأحلامه وتخيلاته: وحين كان يكتب في مواضيع فلسفية وما ورائية عامة، بقيت المشهديات في رأسه هي هي: من بشري إلى بعلبك إلى الهرمل، حيث عمل والده في مزرعة هناك إلى الساحل، واكتشافه المذهل للبحر وكان ولدًا يافعًا، إلى سحر غابات الأرز المجاورة لمسكنه: تلك الطبيعة الخلابة في جبال لبنان فترة نهايات القرن التاسع عشر نُقشت نقشًا في قلب وذاكرة جبران، وهو استخدم كل المفردات النابعة من الحياة القروية مئات، بل آلاف، المرات في كتبه، وكأنها الخلفية الصورية الراسخة لكل فكره: المراعي، الرياح، الضباب، السواقي، الشمس، العواصف، الغابات، البيادر، الحصاد. حتى أنه أخضع، بجماليات جامحة لا تقاوم وبسحر في الكتابة، كل موضوعاته الفلسفية الدنيوية والسماوية إلى علاقة الانسان بالأرض والطبيعة، وكأن الولادة زرع وحصاد، والموت والقيامة بيادر قمح تنذر وتعود مع كل موسم. صحيح أن كتابًا وشعراء كثرًا كتبوا في هذا الاطار، لكن ثمة ما يميز جبران. وقد نجد الإجابة في مقالة شهيرة له عنوانها لكم لبنانكم ولي لبناني. ومن دون شك أن ما رآه جبران في لبنانه، وبشكل خاص في ذاك "الوادي المقدس" في قاديشا، قد مسه وترك أثرًا جليًا فيه.

فجبران رأى دومًا ما وراء الأشياء وما وراء الوجوه، لذا هو عرف دائمًا أحبابه وأصدقائه، وكل النساء اللواتي رسمهن أو أحبهن نفذ إلى أعماقهن بنظرة، بكلمة أو برسالة.

ماري هاسكل

وتبقى علاقته بماري هاسكل من أشف العلاقات العاطفية التي سجلتها للتاريخ الرسائل أو بالتحديد أدب الرسائل. تلك المرأة، التي أحبت جبران وآمنت بموهبته وعبقريته، لم تكن امرأة عادية. على الأقل في نظر جبران المولع بحبها. وما من مراسلات أدبية في العالم أحدثت الوهج الذي أحدثته مراسلات جبران وماري هاسكل التي تعد بالمئات، وتختصر الحب والحياة والألم والمعاناة والرجاء، كما تختصر أحداث حياة تضج بالحركة والابداع: لم يترك موضوعًا إلا وناقشه معها، لم يترك إحساسًا إلا ووصفه لها بقلب نابض وبمخيلة مشتعلة بالأفكار والصور. وأجمل ما في هذه الرسائل ذاك التواطؤ الخفي بينهما وعلى خلفية الحب الهائل والخامد، لتمرير الفرص فيما بينهما لجعل كل واحد يطلق العنان لنفسه ويقول كل ما في داخله إلى آخر رمق. وكل رسالة كتبها جبران لهاسكل كانت على مقدار من الزخم والاندفاع لتبدو وكأنها الأولى أو الأخيرة. بهذا الدفق الجارف استمر جبران سنوات طويلة يكتب ويكتب لماري وكأنه يحادث نفسه، ما يجعل القارئ يتساءل حول تلك المرأة التي، وعلى الرغم من رفضها الزواج به، وعلى الأرجح بسبب فارق العمر بينهما (كانت تكبره بعشر سنوات)، وأيضًا على الرغم من زواجها المتأخر من آخر؛ استمرت تكتب لجبران وكأنها تحادث روحها، وكأنه ليس في الأمر خيانة بل مجرد روحين تتلامسان وتتواصلان خارج حدود الزمان والمكان.

وإذا كانت مؤلفات جبران قد بهرت قراءه فقد كان لتلك الرسائل وقعها لما فتحته من آفاق جديدة في فهم حميميات ذاك الكاتب، من حميميات عواطفه إلى حميميات أفكاره ومسودات أفكاره الدولية التي سبقت كتابة المجنون والعواصف والنبي والمواكب وغيرها من المؤلفات.

في متحف جبران

والكتابة عن جبران تشبه، إلى حد ما، الشعور الذي تتركه الزيارة إلى متحفه الخاص في بشري. ذاك الشعور الهائل بالامتلاء والوحي إلى حد الفيض من دون ادراك كلمة لتصف المشهدية: كلهم هنا في لوحات رسمها: أفراد عائلته، أصدقاء، كتاب، حبيبات. ولكن هل هم كذلك اليوم في وجودهم الملتبس داخل تلك الصومعة الروحية؟ وهل التقاهم جبران بعد رحيله عند تخوم الحقيقة التي سعى طوال حياته لادراكها؟

تلك الحقيقة التي بحث عنها في الكتب والأديان وفي الواقع والحياة وفي ما وراء الحياة ،وادرك بعضًا منها عبر بحثه في الايمان بالخالق والطبيعة والقيامة ورحلة الروح المجهولة:

أيتها الغمامة، يا أختي الغمامة
أنا وأنت الآن شيء واحد
لم أكن ذاتًا منذ وقت طويل
الجدران انهارت
والسلاسل انكسرت
وأنا ارتفعت اليك
وسنبحر معًا إلى أن يأتي يوم الحياة الثانية

عندما يلقيك الفجر قطرات ندى في حديقة ويقذف بي طفلاً في حضن امرأة...

لم يكن رحيل جبران نهائيًا عن هذه الأرض التي أحب، وحياته القصيرة نسبيًا كانت خصبة وغنية وكأنه عاش ألف عام. وفي قصيدة نثرية، يعتبر بها وبسواها رائد القصيدة النثرية المبكر، بعنوان جمال الموت كتب:

دعوني أنم، فقد سكرت نفسي بالمحبة،
دعوني أرقد، فقد شبعت روحي من الأيام والليالي...

يوم مات جبران ١٠ نيسان ١٩٣١ كتبت صحيفة نيويورك صان الأميركية: "مات نبي"، ويوم وصل جثمانه إلى لبنان في ٢٠ آب ١٩٣١، استقبلته الحشود من بيروت إلى بلدته في موكب تاريخي. ١٢٥ سنة على ولادة جبران كانت ذكرى كافية، منذ بداية هذا العام، لاستعادة عالمه ما بين لبنان وباريس وأميركا حيث عاش وكتب ورسم ومات. وقيل ويقال الكثير طوال هذه السنة التكريمية له عبر مؤتمرات وندوات وأعمال مسرحية ومعارض لرسومه وإعادة طباعة كتبه ومؤلفاته، ومع كل هذا يستمر لغز جبران ولغز كتابه النبي الذي بقي يختمر في وجدانه طيلة عشرين عامًا قبل أن يدونه عام ١٩٢٣ لتبلغ مبيعاته، بعد سنوات عشرات، ملايين النسخ حول العالم، وبأربعين لغة. وفي عمق المعنى الخاص بكتاب النبي قد يعثر القارئ على معاناة الكاتب في انجاز هذا المؤلف الذي، وإن جاء على نبرة تأملية، فهو يحفل بالمجاز والرموز والخفايا، لذا يحرض دومًا على قراءته. وفي هذا الاطار، كتب وقال على لسان نبيه:

وإن جاءت كلماتي هذه غامضة على أفهامكم فلا تسعوا وراء ايضاحها، فإن الغموض والسديم هما بداءة كل شيء لا نهايته.

وقد يكون أجمل ما في كتابات جبران ذاك الشغف بتقصي المستقبل وفهمه وكشف الأسرار وتلمس وجه الحقيقة بيديه، لذا هو ربما رسم كل شخصياته عارية أمام وجه الحقيقة بأجساد مقبلة على المجهول وبأيد مفتوحة على المغامرة وشغف الآتي، أي على صورته تمامًا. وكما عاش كل حياته: زاهدًا في ما سيأتي ناسيًا "ما قد مضى".

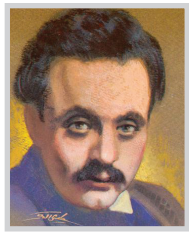

أما كتابه النبي الذي كان حلم حياته طوال سنوات، فكان خلاصة تجربة فلسفية ودينية وأدبية عميقة. لكن ثمة سؤال ظلّ يؤرق النقّاد ولا زال يطرح حتى اليوم ويتعلّق بتصنيف النبي: هل هو شعر وأدب؟ هل هو فلسفة؟ هل هو دين أو ما يقارب الدين؟ كل هذا يُطرح حول ألغاز الكتاب ومناخاته وشخصياته الملتبسة ما بين أرضية وسماوية وأمكنته الملتبسة كذلك معانيه.

سيرته

١٨٨٣: ولد جبران خليل جبران في ٦ كانون الثاني في بشري، شمال لبنان، وهو الولد البكر لخليل جبران وكاملة رحمة. وله شقيق يدعى بطرس من زيجة أولى للأم سافرت على أثرها إلى البرازيل مع زوجها وعادت بعد سنة أرملة مع طفلها، وله أختان: سلطانة ومريانا.

١٨٨٨ – ١٨٩٤: تلقى تعليمه في مدرسة الخوري جرمانوس التابعة لدير مار ليشاع حيث درس العربية والسريانية، وتأثر بالطبيعة الشمالية وبخاصة غابة الأرز المجاورة.

١٨٩١: سجن والده على اثر اتهامه باختلاس أموال الدولة العثمانية، وكان الأخير يجبي الضرائب وتعرّض لسرقة كلفته تفكك أسرته وهجرتها.

١٨٩٢: في التاسعة من عمره، سقط جبران عن صخرة عالية فانكسر عظم كتفه، وصلب على خشبة بضعة أشهر ليشفى، واكتشف عبر هذه التجربة معنى الصلب وأبعاده.

١٨٩٥: هاجرت العائلة في ٢٥ حزيران من مرفأ بيروت باتجاه الولايات المتحدة الأميركية وتحديدًا إلى بوسطن. التحق جبران بمدرسة في أوليربليس وسرعان ما اكتشفت مدرسته جيسي فيرمونت موهبته الفذة، فعرفته إلى المصور فريدهو لنداي ليطلقه في عالم الرسم.

١٨٩٦: بدأ جبران يعمل بجدية على الكتابة والرسم وأبهر من حوله. وفي معرض لداي تعرّف إلى جوزفين برستون صارت نموذجًا لعديد من لوحاته.

١٨٩٨ – ١٩٠٢: عاد إلى بيروت والتحق بمدرسة الحكمة ليعمق دراسته للعربية، على يد الخوري يوسف الحداد، وأسس مع زميله يوسف الحويك مجلة المنارة.

١٩٠٢: عاد إلى بوسطن ليفجع بموت أخته سلطانة وبعدها والدته.

١٩٠٣: بدأ بنشر مقالات أدبية وفلسفية بعنوان دمعة وابتسامة في جريدة المهاجر لصاحبها أمين الغريب.

١٩٠٤: تعرّف إلى ماري هاسكل التي تبنت موهبته وأرسلته ليتابع تعليمه وتخصصه في الرسم.

١٩٠٥: نشر كتابه الموسيقى.

١٩٠٦: نشر عرائس المروج.

١٩٠٨: المرحلة الباريسية: درس جبران الرسم واستمر في كتابته فنشر الأرواح المتمردة، والتقى في باريس كبار الفنانين أبرزهم النحات رودان.

١٩١٠: عاد إلى بوسطن وعرض على ماري هاسكل الزواج فرفضته لأنها تكبره بعشرة أعوام وبقي على حبه لها حتى مماته، وتبادل معها آلاف الرسائل.

١٩١١: انتقل إلى نيويورك حيث بقي حتى مماته. وهناك بدأ بطباعة كتبه ومؤلفاته.

١٩١٢: أرسلت له الأديبة اللبنانية ميّ زيادة مقالة نقدية حول كتاب له ومنذ ذلك الحين، بدأ بمراسلتها ورسالتها الأخيرة له كانت قبل أيام قليلة من موته. وكتب الأجنحة المتكسرة.

١٩١٤: قرأ نتشيه وتأثر به وعلى أثر ذلك كتب العواطف فيما بعد وأقام معرضًا لرسومه برعاية هاسكل في قاعة "مونتروس".

١٩١٥: بدأ كتاباته التي تناقض نظرية نتشيه متجهًا أكثر صوب الصوفية.

١٩١٨: كتب المجنون.

١٩١٩: كتب المطولة الشعرية المواكب.

١٩٢٠: أسس، انطلاقًا من بيته في نيويورك، "الرابطة القلمية" وانتخب عميدًا لها، وضمت أبرز شعراء وأدباء المهجر اللبنانيين، وكتب السابق.

١٩٢٣: كتب البدائع والطرائف والتائه، ومنها انطلق في الكتابة بالإنكليزية التي توجها بثلاثية أولها النبي.

١٩٢٨: صدر له يسوع ابن الانسان بالإنكليزية.

١٩٣٠: كتب حديقة النبي بالإنكليزية أيضًا.

١٩٣١: أصيب جبران بمرض في كبده أقعده فترة قصيرة، ثم ما لبث أن فارق الحياة في العاشر من نيسان.

في ٣١ آب نقلت رفاته إلى لبنان، ودفن في دير مار سركيس في بشري حسب وصيته. وأوصى بماله ومستنداته المالية إلى أخته مريانا، وبكل ما في محترفه من رسوم ولوحات إلى ماري هاسكل على أن ترسل بعضها إلى لبنان إذا أرادت ذلك، وبريع مؤلفاته لقريته بشري.

أعماله

ترك جبران خليل جبران ١٦ كتابًا مكتوبًا بالعربية والإنكليزية، والمئات من الرسوم التي نشر بعضها في مؤلفاته.

له بالعربية:

- الموسيقى
- عرائس المروج
- الأرواح المتمردة
- المواكب
- الأجنحة المتكسرة
- البدائع والطرائف

أما مؤلفاته باللغة الإنكليزية فهي:

- المجنون
- السابق
- رمل وزبد
- التائه
- حديقة النبي
- آلهة الارض
- النبي
- يسوع ابن الانسان.

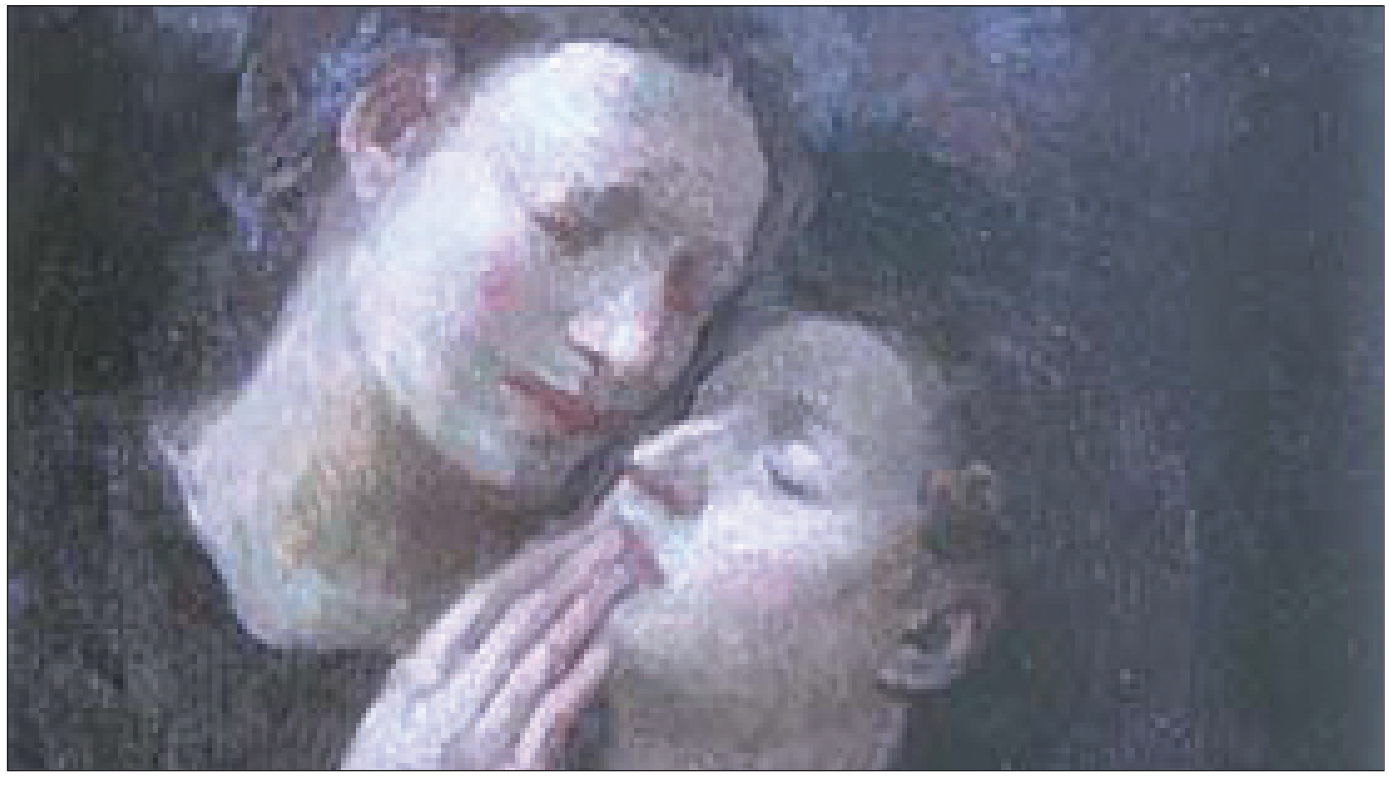

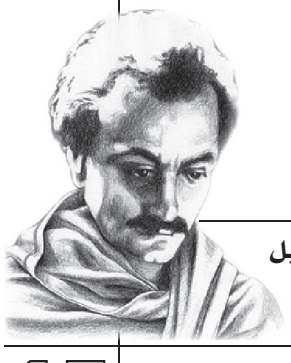

جريدة المستقبل اللبنانية
نيسان ٢٠٠٨

قصيدتان لجبران خليل جبران قبل وفاته

اكتشفت رسائل جديدة لجبران خليل جبران أرسلها لهيلانه غسطين. ولقد تضمّنت إحدى هذه الرسائل قصيدتين جديدتين. ومن اللافت ان هاتين القصيدتين اللتين أرّخت احداهما في عام ١٩٢٤ والثانية في ٢٠ ايار ١٩٢٣ تتضمنان ابياتا (او بيتين على الاقل) يمكن تصنيفها بين اجمل ابيات جبران في قصائده المعروفة.

وفي هاتين القصيدتين تظهر الصور الجبرانية على نحو ما نجده في قصيدة "المواكب" لتعكس نظرته الرومنسية الى العالم وتمزج بين تأملاته الوجدانية ورؤيته الفلسفية.

ويبدو ان جبران في قصيدته غير المعنونة يستلهم مطلع قصيدة ابي فراس الحمداني "اذا الليل اضواني بسطت يد الهوى" فيقتدي البحر نفسه (بما فيه جواز الشطر الاول) كما يقتدي الايقاع الداخلي والاجواء النفسية لقصيدة ابي فراس.

ومن الواضح ان جبران كان يريد العودة الى هذه القصيدة لإجراء تعديل طفيف على بعض الابيات، على خلاف القصيدة الثانية (المعنونة، والمؤرخة في ايار ١٩٢٣) التي بدت شبه مكتملة.

والارجح ان جبران لم يحتفظ بنسختين عن هاتين القصيدتين لاجراء التعديلات التي كان يرغب القيام بها، والا كيف يمكننا ان نفسر عدم ظهورهما بين الاوراق والنصوص التي نشرت بعد وفاته؟

الأولى :

اذا الليل اخفاني ببرد سواده
فلا كوكبٌ يبدو ولا الصبح يطلعُ
فإن نحت لم تسمع نُواحي جارتي
وإن متّ لا تدري ولا تتفجّعُ
وإن مرّ بي طيف الكرى متباطئا
وحدّق في وجهي يخاف ويرجعُ
اذن لتنحى عن كياني كائنٌ
وراح الى بيت الأحبة يسرعُ
الى منزل جدرانه فسحة الفضاء
وفي سقفه سرج الكواكب تسطعُ
وابوابه الذكرى و( )اللقا
فليس بها قفل ولا بها مخدعُ
اطوف به ومعي تطوف رفيقتي
وبكل امر في السعادة نرتعُ
لعمري ما في الليل غير خيالنا
فإن هام همنا وإن تقاعد نخضعُ
وما نحن والدنيا وكل غريبة
نراها سوى حلم الذي ليس يهجعُ

الثانية:

دقوا المسامير
دقّوا المسامير في كفي فإن يدي
مشلولة ليس يبريها سوى ألمي
وفي فؤادي اغان لا الحنها
إلا اذا امتزجت انغامها بدمي
ولي شباب اذا لاقى مصادرة
يبقى وإلا بُلي بالعجز والهرم
ان النواة التي ضنّت بقشرتها

صارات

التحرير	التصميم	الاشراف اللغوي
على حسين	مصطفى محمد	محمد السعدي